اسم الدرس : تفسير سورة الفتح (٦) | الآيات [٢٥ : ٢٩]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. نستكمل بإذن الله عزَّ وجل خواطر ووقفات في تفسير آيات من سورة الفتح، بفضل الله هذا هو الدرس السادس، وبإذن الله يكون الدرس الأخير.

{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح ٢٦-٢٩]

أسأل الله عزَّ وجل ألَّا يحرمنا من مجالس القرآن، وألَّا يحرمنا من قراءة القرآن، وتدبر القرآن، وتفهُّم القرآن، والعمل بالقرآن، ونشر القرآن، والجهاد بالقرآن، وأن يجعلنا الله عزَّ وجل من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، خاصةً ونحن مقبلون على شهر القرآن –شهر الصوم فالإنسان لا بد له أن يُقبل على كتاب الله عزَّ وجل بكُلِّيَّته؛ بقلبه، وعقله، وفكره، ووجدانه، ومشاعره؛ حتى يخرج من شهر رمضان بأوسع حظ وأكبر نصيب من كتاب الله عزَّ وجل وأن يغترف من هذه الكنوز وأن يجني من هذه الثمرات، ويفتقر إلى الله عزَّ وجل حتى ينال فتحًا عظيمًا من الله في هذا الشهر العظيم.

كنا توقفنا عند الآية السادسة والعشرين؛ عند قوله تعالى:

{إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواۡ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُواۡ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا} [الفتح ٢٦]

تكلمنا في الدرس السابق عن **ترتيب الله عزَّ وجل للأقدار**، وما حدث فيها من صلح الحديبية.

ما الحكمة الإلهية من وقوع صلح الحديبية ؟

وأنَّ هذه الأقدار التي حدثت في صلح الحديبية كانت لحكمة بل حِكَم؛ ذكر الله عزَّ وجل بعضًا منها:

- منها أنَّ في أصلاب المشركين من سيخرج ويكون من أهل الإيمان.
- ومنها أنَّ هناك طائفة من المؤمنين والمؤمنات يكتمون إيمانهم، وأراد الله عزَّ وجل أن يُبقي عليهم، وألَّا يجعل لأهل الإيمان من إخوانهم في المدينة أن يطؤهم؛ فبتوفيق وبترتيب من الله ﷻ حدث الصلح.

ما الذي حدث في صلح الحديبية ؟

ثم قال الله ﷻ في الآية التي تليها: {إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ}[الفتح ٢٦]

هذا مشهد يصوِّر لنا ما حدث في صلح الحديبية، تقُص علينا السيرة الأمور الخارجية أثناء سردها لما حدث مع النبي ﷺ مع أصحابه، كمثال النبي ﷺ عندما ذهب مع الصحابة إلى العمرة، وُمنِعوا من الذهاب، ثم حدث الصلح، وأنهم أرسلوا إليهم فلان ثم فلان ثم فلان، واتفقوا على كذا وكذا.

لاحظ أن سرد أحداث الصلح ليس سردا ظاهريا إنما أنتقل إلي وصف المشاعر فالله وحده هو عليم بذات الصدور ولذلك تفرد النص القرآني بهذا النوع من السرد.

وهذه الآيات تتحدث عن القلوب –ليس فقط عن الأمور الظاهرية– تتحدث عما كان يحدث في داخل القلوب أثناء الصلح، تتحدث عن الدوافع القلبية، وهذه الأشياء لا نتحصل عليها إلا من القرآن؛ لأنَّ الله ﷻ هو الواحد الأحد الذي يعلم هذه الأشياء، وهو الذي فعل هذه الأشياء، فلا نستطيع أن نطّلع على ما في القلوب بسرد قَصصي أتى إلينا أو حتى بسند متصل عن صحابة رسول الله ﷺ، فنحن لا نستطيع أن نعلم ما في القلوب إلا بتوقيف من الله ﷻ؛ فقص الله ﷻ علينا في هذه الآية ما حدث في القلوب، فقال الله سبحانه وتعالى:

{إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى **قُلُوبِهِمُ**} ثم قال تعالى: {فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ}[الفتح ٢٦].

هل يحمل الكره الإنسان علي أن يبغي في الأرض فسادا ؟ نعم، وهذا ما حدث، فبسبب الحمية التي في قلوبهم منعوا المعتمرين من الخول لبيت الله الحرام و لجأوا إلي صلح الحديبية.

اختلف المفسرون في تفسير {إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا}[الفتح٢٦]؛ (إذ) ظرف، أي: اللحظة عندما {جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ}، ما هو العامل في هذا الظرف؟

العامل في الظرف هو ما حدث في المكان أو الزمان المذكورين؛ مثال: كلمة (في المدرسة) أو(في المغرب) –سواء ظرف زمان أو ظرف مكان– السؤال المنطقي الذي يجب أن يُسأل هو، ما الذي حدث في وقت المغرب؟ أو ما الذي اللي حدث في المدرسة أو في المنزل؟

فيقول الله تعالى: {إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلجَٰهِلِيَّةِ}[الفتح ٢٦]؛ أي أنَّه اللحظة التي جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية؛ **ماذا حدث؟**

- ربطها بعض المفسرين بقول الله عزَّ وجل: {وَلَولَا رِجَال مُّؤمِنُونَ وَنِسَآء مُّؤمِنَٰت لَّم تَعلَمُوهُم أَن تَطَؤُهُم فَتُصِيبَكُم مِّنهُم مَّعَرَّةُۢ}[الفتح ٢٥].

ثم قال: {لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم عَذَابًا أَلِيمًا}[الفتح ٢٥]، {إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا}[الفتح ٢٦]؛ أي أنهم في هذه اللحظة استوجبوا العذاب –اللحظة التي جعلوا فيها في قلوبهم الحَمِيَّة حمية الجاهلية– فقال المفسرون إنَّ الظرف (إذ) متعلق بالفعل (عذبنا)؛ –لأنَّ أي ظرف نبحث له عن فعل– فهُنا في هذه اللحظة قد استوجبوا العذاب ولكن الله ﷻ منع نزول العذاب عليهم لحكمة لأهل الإيمان.

- وقال بعضهم أنَّه متعلق بفعل {وَصَدُّوكُم عَنِ ٱلمَسجِدِ ٱلحَرَامِ}[الفتح ٢٥]؛ أي أنَّ الدافع الأساسي للصدّ عن المسجد الحرام هو مجرد الحَمِيَّة وليست الأخلاق ولا الدين.

وهم يدَّعون أنهم على دين إبراهيم، إذًا فما الذي دفعكم للصدّ عن المسجد الحرام إن كنتم بالفعل على دين إبراهيم؟

كيف تصدُّون النبي ﷺ عن المسجد الحرام وهو قد جاء معتمرًا ولم يأتِ مقاتلًا؟ وأنتم في الأساس لا تصدُّون أحَدا جاء للبيت معتمرًا، حتى ولو كان قد قتل أحدًا من آبائكم أو إخوانكم!

أنتم تتمثلون -أيها الكفار- وتفتخرون بهذه القيم والمبادئ -بأنكم لا تصدون أحدًا عن المسجد الحرام طالما جاء صاحبها بالهدي، وجاء معتمرًا، ولم يأتِ لقتال-، فيخبرنا الله ﷻ أنَّ الدافع الرئيسي هو مجرد الحَمِيَّة، فلو قلنا إنَّ {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ}[الفتح ٢٦] متعلقة بقوله سبحانه وتعالى: {وَصَدُّوكُم عَنِ ٱلمَسجِدِ ٱلحَرَامِ}[الفتح ٢٥]؛ أي أنَّ الدافع الرئيسي للصدِّ عن المسجد الحرام هو مجرد الحَمِيَّة -يرتكبون مِثلَ هذا الفعل الأحمق ومثل هذه الكبيرة لمجرد الحمية-.

إذا مختصر اختلاف المفسرين: **هل كلمة (إذ) متعلقة بعذبنا أم بصدُّوكم؟**

إذا كانت متعلقة بعذّبنا، فمعنى الآية أنهم في هذه اللحظة استوجبوا العذاب، وإن كانت متعلقة بصدُّوكم فيكون معنى الآية أنَّ المانع الرئيسي الذي دفع المشركين لصد المؤمنين عن المسجد الحرام كان مجرد الأَنَفَة والكبر.

الآن لنقسم الآيه إلي قسمين، الأول في حال قلوب الكافرين والثاني في حال قلوب المؤمنين ؟ ونتدبرهما.

{إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلمُؤمِنِينَ وَأَلزَمَهُم كَلِمَةَ ٱلتَّقوَىٰ}[الفتح ٢٦].

دعونا نقارن بين نصف الآية الأول، ونصف الآية الثاني؛ {جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا}[الفتح ٢٦]، الفِعْل (جعل) والفاعل (الذين كفروا) -وهذا هو الأشهر عند المفسرين-، جعل: الفعل. الذين كفروا: الفاعل. (في قلوبهم الحَمِيَّة) الحَمِيَّة: مفعول لجَعل.

قابل الله جعلِهم الحمية حمية الجاهلية بإنزال السكينة على قلوب المؤمنين، فتجد أن الفعل (جعل) يقابله الفعل (أنزل)، والفاعل للفعل (أنزل) هو لفظ الجلالة الله ﷻ، والمفعول: (السكينة)، نزلت على مَنْ؟ (على رسوله وعلى المؤمنين).

إذَا؛ حتى نفرِّقَ بين المؤمنين والمنافقين، أو المؤمنين والكافرين؛ لأنَّ كل من الفريقين له سُنة في المعاملة، ماذا فعل الكافرون؟ {جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلجَٰهِلِيَّةِ}[الفتح ٢٦]، ويقابلها إنزال الله السكينة على قلب المؤمن.

تفكر قليلا: كيف يجعل إنسان في قلبه الحَمِيَّة؟

الحَمِيَّة أحيانًا تأتي بمعنى الغضب، **كيف يُغضِب الشخص نفسه؟**

أنا من الممكن أن أغضب بدون قصد –وهذا مفهوم–، لكن هناك مَن يضع نفسه في مقدمات الغضب؛ لذلك عندما قال النبي ﷺ للصحابي: (لا تغضب)[1]؛ معناه: لا تتلبس بالمقدمات التي تجعلك تغضب، بمعنى أنَّ هناك أفكار، وأماكن، وأُناس تجعلك لا تملك نفسك عند الغضب ولا تتحكم فيها؛ أنت كمسلم منهيٌّ عن الذهاب لهذه الأماكن؛ فلا تذهب هناك ثم تقول إنك غضبت رغمًا عنك؛ أنت المخطئ هُنا، لماذا تُهيئ لنفسك ظروف تُغضبك؟

فكذلك الكفار، تكلّموا أنَّ المسلمين سيدخلون عليهم، وأخذوا يُشعِلون الحَمِيَّة بداخل أنفسهم وجعلوا الحَمِيَّة تُثار في قلوبهم.

مثل أن تجلس وتفكر في شخص له فضل عليك ولكنَّه أذاك، فيقول لك أحدهم: سامحه؛ فتجعل في قلبك الحَمِيَّة بأن تفكر كثيرًا أنت والشيطان، وأنَّ مسامحة هذا الشخص تُعدُّ ضعفًا منك، ثم تسترسل مع تلك الأفكار؛ ماذا جعلت في نفسك؟ جعلت في قلبك حَمِيَّة.

ما التصرف الصائب إذًا؟ التصرف الصائب هو أن تتذكر الأحاديث التي تأمرك بالصفح، والآيات التي تأمرك بالإحسان، وأن تتذكر الفضل {وَلَا تَنسَوُا ٱلفَضلَ بَينَكُم}[البقرة ٢٣٧]، أو أن تذهب لأحد أهل الصلاح ليُذكِّرك.

أما عكس الذي يحدث هو أن يجعل أحدهم في قلبه الحَمِيَّة بأن يشتكي لأحد، فيُثيره هذا الشخص بمزيدٍ من الغضب ويجعله يستشيط غضبًا، **هو في هذه اللحظة آثم**؛ لأنَّه يجعل الآن في قلبه الحَمِيَّة.

{إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلحَمِيَّةَ}[الفتح ٢٦].

فلابد أن يلاحظ الإنسان ما يحدث في قلبه ألا يتلبس بالمقدمات التي تجعل في قلبه الحَمِيَّة

[1] [عن أبي هريرة:] أَنَّ رَجُلًا قالَ للنبيِّ ﷺ: أوْصِنِي، قالَ: لا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِرارًا، قالَ: لا تَغْضَبْ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦١١٦ • [صحيح]

كيف جعل في قلبه الحَمِيَّة؟ أخذوا يُقلِّبون الأفكار ويشحذون أنفسهم بأسئلة تزيدهم غضبًا، مثلًا هُنا في الآيات: كيف يدخل المسلمون علينا مكة؟ لا تتحدث العرب أنهم دخلوا علينا مكة، يجب أن يعودوا، وظلُّوا يتحدثون بهذه الأفكار **حتى أصبحت الحَمِيَّة راسخةً في قلوبهم**.

إذًا؛ كلمة (جَعَلَ) بماذا نخرج منها؟ أنَّه يجب على الإنسان ألا يتلبس بالمقدمات التي تجعل في قلبه الحَمِيَّة أو الغضب أو الأَنَفَة أو الكِبر، وإذا وجد الإنسان هذه البوادر في قلبه؛ فليفزع إلى القرآن وإلى السنة أو إلى أحد الصالحين؛ ليُذكِّروه بالآيات أو بالأشياء التي تأمره بالعفو والصفح حتى تذهب الأَنَفَة والحَمِيَّة والكِبر من قلبه، **فلابد أن يلاحظ الإنسان ما يحدث في قلبه**، من المفترض أن تراقب ما يحدث في قلبك إذا بدأت بوادر الحَمِيَّة والكِبر والأَنَفَة تدخل إلى قلبك؛ لا بد أن تفزع وتبتعد عن هذه البوادر.

{إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا}[الفتح ٢٦] فهُنا وصْف الكفار الذين كفروا والاسم الموصول المعرِّف؛ لأنَّ ما فعلوه هو من أوصاف الكفر؛ صدّ الناس عن بيوت الله ﷻ هي من الأفعال الخاصة بالكفار {وَمَن أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ}[البقرة ١١٤]، فهذه من أفعال الكفار.

ذكر الله لنا أفعال الكفار وأفعال المنافقين كي نحذر من هذه الأفعال ولا نتشبه بهم.

وذكر الله ﷻ لنا في القرآن وأخبرنا النبي ﷺ أنَّ هُناك أفعال خاصة بأهل الكفر وأفعال خاصة بأهل النفاق، ليس معنى أن يتلبَّس الإنسان بفعل من أفعال الكفر أنَّه كافر، أو إنسان يتلبَّس بفعل من أفعال النفاق أنَّه منافق مغموس في النفاق، لكن هذه أفعال خاصة بأهل الكفر وأفعال خاصة بأهل النفاق فلا ينبغي أن نتشبه بها، فمن أفعال الكفر التي لا ينبغي للمؤمن أن يتلبس بها؛ أن يصد الناس عن بيوت الله سبحانه وتعالى.

لاحظ أيضا أن بغض الكفار للمؤمنين لم يكن شعورا عابرا إنما أصبح راسخا في قلوبهم.

{إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ}[الفتح ٢٦]. ومسألة حرف (فِي) هذا الذي يفيد الانغماس والعمق أي أنَّ أصبحت الحَمِيَّة راسخةً في قلوبهم، فأصبح لا يتكلم ولا يتحرك إلا بحَمِيَّة وأَنَفَة وكِبر، المحرِّك الأساسي والدافع الرئيسي هو مجرد الكِبر والغطرسة ولا توجد أي اعتبارات أخرى، حتى أحيانًا يكون

هناك كافر عاقل يَعتبر صلة الرحم والمودة، يفكر في المستقبل، فأحيانًا تجد عدوًّا عاقلًا، لكن هؤلاء كان تصرفهم في هذه اللحظة مجرد الحَمِيَّة.

{إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلحَمِيَّةَ}[الفتح ٢٦]. الحَمِيَّة: قيل بمعنى الحُمَّى والماء المغلي والنار؛ فأحيانًا يكون لدى الإنسان دافع لأن يشتاط غضبًا، وفي هذه اللحظة قلَّما يُسيطر الإنسان على نفسه، وهذه الحَمِيَّة قد تكون في الخير؛ (كان النبي ﷺ يغضب إذا انتُهكت حرمات الله)[٢].

الحمية المحمودة والحمية المذمومة:

إذًا ليس الغرض أن تصرف هذه الحَمِيَّة تمامًا عن قلبك، ليس معنى مجيء الحمية هُنا {إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلحَمِيَّةَ}[الفتح ٢٦] أنَّ أي غضب يكون مذمومًا؛ أبدًا، **وما انتُهكت حرمات الدين إلا بموت هذه الحَمِيَّة الصالحة عند أهل الإيمان**.

وقد تحدث ابن القيم -في كتابه الروح- عن فصل الحَمِيَّة المحمودة والحَمِيَّة المذمومة وقال **إنَّ المذمومة هي المبنية على الجاهلية** لذلك بعد أن قال الله عزَّ وجل: {إِذ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلحَمِيَّةَ}[الفتح ٢٦] عرَّفنا الله عزَّ وجل ما هي الحَمِيَّة المذمومة فقال {حَمِيَّةَ ٱلجَٰهِلِيَّةِ}[الفتح ٢٦]، لكن أحيانًا الإنسان يغضب وتكون له حَمِيَّة لنُصرة الدين إذا انتُهكت حرمات الملك سبحانه وتعالى، أو أعراض المسلمين والمسلمات فينتفض المسلم، لذلك وصف الله عزَّ وجل المؤمنين في ختام هذه السورة بأنهم {أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَينَهُم}[الفتح ٢٩]، من وصف أهل الإيمان أنهم أشدّاء -كما قال بعض السلف- كالأسد على فريسته، فليس معنى مجيء الحَمِيَّة هنا مذمومة -حَمِيَّة الجاهلية- أنَّ كل

---

[٢] نماذج من غضب النَّبي صلى الله عليه وسلم عندما تنتهك حرمات الله

١. عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((دخل عليَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم، وفي البيت قرام فيه صور، فتلوَّن وجهه، ثم تناول الستر فهتكه، وقالت قال النَّبي صلى الله عليه وسلم: من أشد النَّاس عذابًا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور)). رواه البخاري (٦١٠٩)، ومسلم (٢١٠٧).

٢. وعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: ((أتى رجل النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، قال: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قطُّ أشد غضبًا في موعظة منه يومئذ، قال: فقال يا أيُّها الناس، إنَّ منكم منفِّرين، فأيُّكم ما صلى بالنَّاس فليتجوز فإنَّ فيهم المريض، والكبير، وذا الحاجة)). رواه البخاري (٦١١٠)، ومسلم (٤٦٦).

٣. وعن عائشة رضي الله عنها ((أنَّها قالت: رخَّص رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر، فتنزَّه عنه ناس من النَّاس، فبلغ ذلك النَّبي صلى الله عليه وسلم، فغضب حتَّى بان الغَضَب في وجهه، ثمَّ قال: ما بال أقوام يرغبون عمَّا رخَّص لي فيه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدَّهم له خشيةً)). رواه مسلم (٢٣٥٦).

٤. وعن أبي قتادة رضي الله عنه، أنَّه قال: ((رجل أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: كيف تصوم؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمَّا رأى عمر رضي الله عنه غضبه، قال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّد نبيًّا، نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله. فجعل عمر رضي الله عنه يردِّد هذا الكلام حتَّى سكن غضبه)). رواه مسلم (١١٦٢).

غضب وكل حَمِيَّة تكون مذمومة؛ أبدًا، إنما اذا جاءت لنُصرة الدين ومُنطلقها الدفاع عن حرمات الله تكون محمودة.

ولكن الإشكالية في ماذا؟ الإشكالية أنَّه قلَّما يُسيطر الإنسان على نفسه في هذه اللحظات، **قلَّما تكون النية صافية**؛ لذلك كان ابن تيمية في أكثر من موضوع يقول: إنَّ الذي دائمًا ينتصر لنفسه ويأخذ حقه ولا يسامح، غالبًا ما يقع في الظلم؛ لأنه لا يستطيع أن يملك نفسه.

لذلك كان النبي ﷺ يسأل الله عزَّ وجل كلمة الحق في الغضب والرضا[٣]، فعندما تختلف مشاعرك قد لا تستطيع أن تتكلم بكلمة الحق.

لذلك من القواعد المشهورة في المعاملات مع الناس ومع زوجتك تحديدًا أيضًا، أنَّه عندما تكون سعيدًا لا تَعِد، وإذا كنت غضبانًا لا تتخذ قرارات؛ لأنك عندما تكون سعيدًا قد تَعِد وعودًا لا تستطيع أن توَفّيها فتُؤخذ عليك، وإذا كنت غضبانًا لا تأخذ قرارات؛ لذلك الشيخ فريد الأنصاري رحمه الله في آيات الطلاق دائمًا ما كان يكرر قضية أنَّ الطلاق قرار حكيم له زمن مُعين، لا يأخذ قرار الطلاق في غضبة، لا بل هو قرار بعد تفكير وروية وانتظار طُهر لم يجامعها فيه فهو ينتظر ويفكر قبل أن يأخذ القرار **فقرار الانفصال ليس غضبة**.

فالإنسان في لحظات الغضب قلَّما يُسيطر على نفسه وأحيانًا يكون الفارق دقيقا جدا "هل تدافع عن الدين أم تنتصر لنفسك؟" هذه الفوارق الدقيقة تجعل الإنسان أحيانًا يحترز ويتجه إلى الإحسان والصفح.

والإنسان لا يخلص الحمية لله وحده إلا بتوفيق من الله ، فما كان الصحابة ليثبتوا إلا بما أنزل عليهم من السكينة.

لذلك هم –المؤمنون– مع النبي ﷺ ومَن صدُّوهم عن البيت كُفار ومع ذلك نهاهم النبي ﷺ عن القتال وأخبرهم بالصلح، أي أنَّه لا مجال للتأويل فالنبي ﷺ معهم ويأخذون الأمر المباشر منه فلم يستطع الصحابة أن يتحركوا **ووقفوا في مشهد ملكوا فيه أنفسهم بصعوبة**.

---

[٣] [عن عمار بن ياسر:] اللهمَّ بعِلْمِكَ الغيبَ وقُدْرَتِكَ عَلى الخَلقِ، أحْيِني ما علِمْتَ الحياةَ خيرًا لِي، وتَوَفَّني إذا عَلِمْتَ الوفاةَ خيرًا لي، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ خشْيَتَكَ في الغيبِ والشهادَةِ، وأسألُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ في الرِّضا والغضَبِ، وأسألُكَ القصدَ في الفقرِ والغِنى، وأسألُكَ نعيمًا لا ينفَدُ، وأسألُكَ قرَّةَ عينٍ لا تنقَطِعُ، وأسألُكَ الرِّضى بعدَ القضاءِ، وأسألُكَ بَرْدَ العيشِ بعدَ المَوْتِ، وأسألُكَ لَذَّةَ النظرِ إلى وجهِكَ، والشوْقَ إلى لقائِكَ في غيرِ ضراءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ، اللهم زيِّنَّا بزينَةِ الإيمانِ، واجعلنا هُداةً مُهتدينَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، الكلم الطيب ١٠٦ • إسناده صحيح • أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وأحمد (١٨٣٥١) باختلاف يسير.

لدرجة أنَّ سيدنا عمر بن الخطاب كان يمشي بجانب أبي جندل عندما حاول أبو جندل -وكان ابن أحد المشركين- أن يأتي إلى المسلمين وألقى بنفسه بين المسلمين وقال أتتركوني أعود إلى الكُفار؟! في مشهد عجيب يستثير مشاعر أهل الإيمان.

وكان عمر يسير بجانبه ومعه سيفه ويقول له: (إنما دم أحدهم كدم كلب)[٤]، بمعنى أنَّه يدفع أبو جندل ليأخذ السيف ويقتل أباه فيشتعل القتال، وبالرغم من ذلك كان لديهم قمة ضبط النفس، وهو أمر صعب جدًا؛ لذلك هم وُصِفوا في الآيات بالإقبال، **فتخيَّل هُنا عندما يُوصفون بقمة ضبط النفس؛ لذلك كانوا يحتاجون إلى سكينة مقابل الحَمِيَّة.**

---

[٤] أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ ، وَأَبُو بَكْرٍ الْقَاضِي قَالَا : ثنا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ ، ثنا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ ، عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ مَرْوَانَ ، وَالْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ ، فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَةِ وَخُرُوجِ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّهُ لَمَّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَرَى بَيْنَهُمَا الْقَوْلُ حَتَّى وَقَعَ الصُّلْحُ عَلَى أَنْ تُوضَعَ الْحَرْبُ بَيْنَهُمَا عَشْرَ سِنِينَ ، وَأَنْ يَأْمَنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَأَنْ يَرْجِعَ عَنْهُمْ عَامَهُمْ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ قَدِمَهَا خَلَّوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا ، وَأَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا بِسِلَاحِ الرَّاكِبِ وَالسُّيُوفِ فِي الْقُرُبِ ، وَأَنَّهُ مَنْ أَتَانَا مِنْ أَصْحَابِكَ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَأَنَّهُ مَنْ أَتَاكُمْ مِنَّا بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهِ رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي كِتْبَةِ الصَّحِيفَةِ قَالَ : فَإِنَّ الصَّحِيفَةَ لَتُكْتَبُ إِذْ طَلَعَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي الْحَدِيدِ وَقَدْ كَانَ أَبُوهُ حَبَسَهُ فَأَفْلَتَ ، فَلَمَّا رَآهُ سُهَيْلٌ قَامَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ وَجْهَهُ وَأَخَذَ بِلُبَّتِهِ فَتَلَّهُ وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ قَدْ وَلِجَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا . قَالَ : صَدَقْتَ . وَصَاحَ أَبُو جَنْدَلٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي جَنْدَلٍ : أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، إِنَّا قَدْ صَالَحْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَجَرَى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الْعَهْدُ ، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ . فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَمْشِي إِلَى جَنْبِ أَبِي جَنْدَلٍ وَأَبُوهُ يَتُلُّهُ وَهُوَ يَقُولُ : أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ فَإِنَّمَا هُمُ الْمُشْرِكُونَ ، وَإِنَّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ . وَجَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدْنِي مِنْهُ قَائِمَ السَّيْفِ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : رَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَهُ فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ فَضَنَّ بِأَبِيهِ . ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي التَّحَلُّلِ مِنَ الْعُمْرَةِ وَالرُّجُوعِ ، قَالَا : وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَاطْمَأَنَّ بِهَا أَفْلَتَ إِلَيْهِ أَبُو بَصِيرٍ عُتْبَةُ بْنُ أَسِيدِ بْنِ جَارِيَةَ الثَّقَفِيُّ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ ، فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ وَالْأَزْهَرُ بْنُ عَبْدِ عَوْفٍ وَبَعَثَا بِكِتَابِهِمَا مَعَ مَوْلًى لَهُمَا وَرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ اسْتَأْجَرَاهُ لِيَرُدَّ عَلَيْهِمَا صَاحِبَهُمَا أَبَا بَصِيرٍ فَقَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَفَعَا إِلَيْهِ كِتَابَهُمَا ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَصِيرٍ فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا بَصِيرٍ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ صَالَحُونَا عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ ، وَإِنَّا لَا نَغْدِرُ فَالْحَقْ بِقَوْمِكَ . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرُدُّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي وَيَعْبَثُونَ بِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اصْبِرْ يَا أَبَا بَصِيرٍ وَاحْتَسِبْ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا . قَالَ : فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ وَخَرَجَا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ جَلَسُوا إِلَى سُورِ جِدَارٍ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِلْعَامِرِيِّ : أَصَارِمٌ سَيْفُكَ هَذَا يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَنْظُرُ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : إِنْ شِئْتَ . فَاسْتَلَّهُ فَضَرَبَ بِهِ عُنُقَهُ وَخَرَجَ الْمَوْلَى يَشْتَدُّ فَطَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ قَدْ رَأَى فَزَعًا . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ قَالَ : وَيْحَكَ مَا لَكَ ؟ قَالَ : قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي . فَمَا بَرِحَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو بَصِيرٍ مُتَوَشِّحًا السَّيْفَ فَوَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَفَتْ ذِمَّتُكَ وَأَدَّى اللَّهُ عَنْكَ وَقَدِ امْتَنَعْتُ بِنَفْسِي عَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي وَأَنْ يَعْبَثُوا بِي . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَيْلُ أُمِّهِ مِحَشَّ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ . فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ حَتَّى نَزَلَ بِالْعِيصِ وَكَانَ طَرِيقُ أَهْلِ مَكَّةَ إِلَى الشَّامِ فَسَمِعَ بِهِ مَنْ كَانَ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَبِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ ، فَلَحِقُوا بِهِ حَتَّى كَانَ فِي عُصْبَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَرِيبٍ مِنَ السِّتِّينَ أَوِ السَّبْعِينَ ، فَكَانُوا لَا يَظْفَرُونَ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا قَتَلُوهُ ، وَلَا تَمُرُّ عَلَيْهِمْ عِيرٌ إِلَّا اقْتَطَعُوهَا حَتَّى كَتَبَتْ فِيهَا قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ لَمَا آوَاهُمْ فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِمْ ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ

(حديث رقم ١٧٢٧٧ - من كتاب السنن الكبير للبيهقي - كِتَابُ الْجِزْيَةِ)
(السنن الكبير للبيهقي كِتَابُ الْجِزْيَةِ جِمَاعُ أَبْوَابِ الشَّرَائِطِ الَّتِي يَأْخُذُهَا الْإِمَامُ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَمَا يَكُونُ مِنْهُمْ نَقْضًا لِلْعَهْدِ حديث رقم ١٧٢٧٧)

قبل أن تقدم علي أمر فيه حمية محمودة أسأل الله الإخلاص والسكينة.

فأحيانا تدعو أحدًا إلى الله عزَّ وجل وتتفاجأ أنَّه يفعل كل الوسائل لتغضب؛ يستثير بداخلك الحَمِيَّة كي تنتصر لنفسك، قد يبصق في وجهك، قد يسبك، **تحتاج في هذه اللحظات إلى سكينة**؛ لذلك جاءت هُنا (فاء) السرعة {فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ}[الفتح ٢٦] وكأنهم لم يكونوا ليستطيعوا أن يقاوموا هذه الحَمِيَّة بدون هذه السكينة من الملك سبحانه وتعالى، فهم كانوا يحتاجون إليها ويأتي الزاد دائمًا على قدر المشقَّة؛ فهم يحتاجون الزاد في هذه اللحظة فأنزل الله سكينته.

{إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ}[الفتح ٢٦] أي: الماء المغلي والسخونة، والحُمَّى، هذا معنى الحَمِيَّة. هذه الحَمِيَّة منطلقها حَمِيَّة الجاهلية.

ما الموقف الذي ظهرت فيه حمية الكافرين؟

لكن أولًا قبل أن نتحدث عن حَمِيَّة الجاهلية، قيل في الحَمِيَّة، **ما الذي فعلوه؟**

قيل: إنهم عندما أصرُّوا أن يمسحوا اسم الرحمن الرحيم عندما كتب النبي ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا لا نعرفه اكتب باسمك اللهم وعندما قال من محمد رسول الله ﷺ، قالوا: لا نعرفك اكتب محمد بن عبد الله. وما يضُرُّهم هذه الكلمات على الورق؟! ولكنها **حَمِيَّة الجاهلية**.

وقيل الحَمِيَّة أنَّهم صدُّوهم عن المسجد الحرام -إذا أخذنا بالقول أنها متعلقة بكلمة صدُّوكم- وما يضُرُّكم أن يطوفوا بالبيت؟! فكل القبائل تأتي وتطوف بالبيت حتى التي بينكم وبينهم عداوة فلماذا لا تتركون النبي صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت؟! فهي مجرد الحَمِيَّة.

فقيل الحَمِيَّة: **إما الصد عن البيت** أو **إصرارهم على مسح هذه الكلمات**.

ذكر الله لنا من هم الجاهلين حتي لا نكون منهم، فنتتبع ذكرهم في القرآن لنعرف صفاتهم:

{حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ}[الفتح ٢٦] لفظة الجاهلية وإضافة الحَمِيَّة إليها، لفظ الجاهلية عندما ندرسه في القرآن، وهذه يسمونها "الدراسة المصطلحية في القرآن" والتفت إليها علماء من المتقدمين ومن المتأخرين، مدرسة كاملة في المغرب من العلماء انتفضوا للدراسة المصطلحية في القرآن، أستاذ كبير اسمه "الشاهد البوشيخي" وهو من مشايخ الشيخ فريد الأنصاري وما زال على قيد الحياة وقام بعمل عديد من

الجمعيات والمؤتمرات وله تلامذة كُثر في الماجستير والدكتوراة- كل شخص كان يختار مصطلحًا واحدًا، مثلًا مصطلح "الأُمة" في القرآن. فانتبهوا إلى أنَّ قضية دراسة المصطلح في القرآن ذو أهمية عظيمة.

فإذا بحثنا في مصطلح "الجاهلية" نجد كتب كثيرة ومقالات كثيرة كُتبت مثل:

كتب محمد شمس الدين أو محمد قطب أو رفاعي سرور أو المنتمون لمدرسة المغرب، الدكتور محمد الينبوعي قام بعمل دراسة رائعة في الجهل والجاهلية، استقصاء لكل الألفاظ في القرآن، وبالاستقصاء وجدنا أنَّ **مصطلح الجاهلية أتى أربع مرات في القرآن، والأربع مواضع سور مدنية** فنحن مطالبون أن يكون هناك فصل بين الإسلام والجاهلية.

وعندما قال النبي ﷺ لأبي ذر: (إنك امرؤ فيك جاهلية)[٥] أي: يجب أن تتخلص منها، إذًا كل ما له علاقة بالجاهلية يجب أن نتخلص منه.

فدراسة هذا المصطلح في القرآن يُفهِّمنا أنَّ الجاهلية ليست مجرد بعض الأخلاق المذمومة التي يجب أن نتركها، لا فالأمر أعمق من هذا فالجاهلية نظام متكامل مضاد للإسلام، وهي ليست أفعال وأخلاق من الممكن أن نتركها.

فنجد أن الجاهلية أتت في القرآن في أربع مواضع هم:

١. آل عمران {وَطَآئِفَة قَد أَهَمَّتهُم أَنفُسُهُم يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيرَ ٱلحَقِّ ظَنَّ **ٱلجَٰهِلِيَّةِ**}[آل عمران ١٥٤].

٢. الموضع الثاني في المائدة {أَفَحُكمَ **ٱلجَٰهِلِيَّةِ** يَبغُونَ}[المائدة ٥٠].

٣. والثالث في سورة الأحزاب {وَلَا تَبَرَّجنَ تَبَرُّجَ **ٱلجَٰهِلِيَّةِ**}[الأحزاب ٣٣].

٤. وهُنا معنا في سورة الفتح {حَمِيَّةَ **ٱلجَٰهِلِيَّةِ**}[الفتح ٢٦].

[٥] [عن المعرور بن سويد:] مَرَرْنا بأَبِي ذَرٍّ بالرَّبَذَةِ وعليه بُرْدٌ وعلى غُلامِهِ مِثْلُهُ، فَقُلْنا: يا أَبا ذَرٍّ لو جَمَعْتَ بيْنَهُما كانَتْ حُلَّةً، فَقالَ: إنَّه كانَ بَيْنِي وبيْنَ رَجُلٍ مِن إخْوانِي كَلامٌ، وكَانَتْ أُمُّهُ أَعْجَمِيَّةً، فَعَيَّرْتُهُ بأُمِّهِ، فَشَكانِي إلى النبيِّ ﷺ، فَلَقِيتُ النبيَّ ﷺ، فَقالَ: يا أَبا ذَرٍ، إنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جاهِلِيَّةٌ، قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، مَن سَبَّ الرِّجالَ سَبُّوا أَباهُ وَأُمَّهُ، قالَ: يا أَبا ذَرٍّ، إنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جاهِلِيَّةٌ، هُمْ إخْوانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فأطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فأعِينُوهُمْ. [وفي رواية]: وَزادَ في حَديثِ ... المزيد مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٦٦١ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣٠)، ومسلم (١٦٦١).

عندما ننظر في الأربع مواضع سريعًا نجد أنَّ:

{ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ}؛ في الله **هذه عقيدة، والعقيدة هُنا جاءت في القدَر**، فهم يرفضون قدر الله، ويكفرون بتقدير الله، فهم يقولون أنَّ الله لا يُقدِّر كل شيء؛ أنا الذي أُرتب.

ونجد أنَّ حكم الجاهلية هو **الكفر بشرعه في المائدة**، إذًا فالجاهلية هي **الكفر بقدره في آل عمران**، وفي المائدة الكفر بشرعه لا يريد أن يتحاكم إلى شرع الله، يريد قوانين وضعية، إذًا التفكير بهذه الطريقة أو فعل شيء من هذه الأفعال هي من أفعال الجاهلية.

الثالثة: {تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ} ونجد أنَّ الجاهلية دائمًا عندما تريد ضرب المجتمع وإيقاعه تدخل من العقيدة، ومن الحُكم، **ومن النساء**، والأخلاق، وإشاعة الفاحشة بين المسلين، لذلك عندما نريد مواجهة الجاهلية لا بد أن نواجهها على كل المستويات، على مستوى العقيدة والحكم والأخلاق وعلى مستوى منع الفاحشة.

والرابعة التي معنا: {حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ}؛ أنَّ **العلاقات بين الناس ليست قائمة على الولاء والبراء** (حب المؤمن وبغض الكفار)، **لا بل مبنية على الأنَفَة والكِبر**، فهذا من قبيلتي إذًا أنا معه حتى لو كان على الباطل! فتنظيم العلاقات بين الناس أصبح غير قائم على **أساس العقيدة والولاء والبراء**، ولكنّه قائم على الحَمِيّة؛ لن تدخلوا البيت الحرام، لماذا؟ لأنكم مسلمون! لكن القبيلة الفلانية تدخل لأنها معي، **فجاء الإسلام ليحارب كل هذه الأنواع من الجاهلية**؛ على مستوى العقيدة والحكم والأخلاق وعلى مستوى الروابط بين الناس، الروابط الإنسانية، الولاء والبراء، فالجاهلية نظام متكامل؛ لذلك بعض من اجتهدوا حاول **جمع الجاهلية في السُنة فوجدوها جاءت تقريبًا ثمانية عشرة مرة**، وحاول البحث عن الإضافات فوجد "رِبا الجاهلية" و"دماء الجاهلية" و"دعوى الجاهلية" و"أمر الجاهلية"، إلي آخره، كل هذه الألفاظ جاءت على لسان النبي ﷺ في أحاديثٍ صحيحة؛ لذلك النبي ﷺ في حجة الوداع في آخر موطن يقابل فيه أكبر عدد من المسلمين قال صلى الله عليه وسلم (ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي)[٦]، انتهى الأمر، فهُناك مفاصلة تامة مع الجاهلية.

[٦] [عن جابر بن عبدالله:] إنَّ دماءَكم وأموالَكم عليكم حرامٌ كحُرْمَةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا، ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمرِ الجاهليةِ تحتَ قدمي موضوعٌ، ودماءُ الجاهليةِ موضوعةٌ، وأولُ دمٍ أضعُه من دمائِنا دمُ ربيعةَ بنَ الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ، وربا الجاهليةِ موضوعٌ، وأولُ ربًا أضعُ من رِبانا ربا العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ، فإنَّهُ موضوعٌ كلُّه، فاتَّقوا اللهَ في النساءِ، فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمانةِ اللهِ، واستحللتُم فروجَهُنَّ بكلمةِ

وذكر النبي في حجة الوداع: دماء الجاهلية وربا الجاهلية، إذًا موضوع الجاهلية -وهي نسبة إلى الجهل-؛ لأنَّه كلما ابتعد الإنسان عن الوحي فهو في جهل، **فالجاهلية تستقي مبادئها من الناس، من الأرض، أما الإسلام فمبادئه من الوحي؛ من الله**، هذا هو الفارق بين العلم والجهل، بين الإسلام والجاهلية.

إذًا مهما كان الحكم الوضعي الذي يخالف شرع الله ﷻ مهما رآه الناس متقدمًا هو من أمر الجاهلية حتى لو جاء حديثًا، **الجاهلية ليست مرتبطة بزمن** فهي لا تنتهي مثلًا عند سنة واحد هجريًا وكل ما حدث بعدها ليس جاهلية! لا الأمر ليس كذلك، فلا زلنا بعد الإسلام والنبي ﷺ يقول: (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!)[٧] أن يقوم المهاجرون والأنصار ويقولوا يا للمهاجرين ويا للأنصار ويتشاحنون على أُسس قَبلية وعصبية معينة، هذا من أمر الجاهلية، هذه هي حَميّة الجاهلية، فغضب النبي ﷺ، كيف تتقاتلون وتتحزبون إلى فريقين؟!

فحَميّة الجاهلية أن يتعصب الإنسان إلى قومية معينة أو وطنية معينة ويفاضل بين الناس على أُسس اللون أو العرق أو البلد؛ فهذا من حَميّة الجاهلية.

اللهِ، وإنَّ لكم عليهنَّ أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أحدًا تكرهونه، فإن فعلْنَ ذلك فاضربوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّحٍ، ولهنَّ عليكم رزقُهُنَّ وكسوتُهُنَّ بالمعروفِ، وإني قد تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعدَه إن اعتصمتُم به، كتابَ اللهِ، وأنتم مسؤولونَ عنِّي، فما أنتم قائلونَ؟ قالوا نشهدُ أنَّكَ قد بلَّغْتَ وأدَّيْتَ ونصحتَ، فقال: اللهمَّ اشهَدْ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٢٠٦٨ • صحيح • أخرجه مسلم (١٢١٨) باختلاف يسير.

[٧] [عن زيد بن أسلم:] مرَّ شاسُ بنُ قيسٍ وكانَ شيخًا قد عسا في الجاهليةِ عظيمَ الكفرِ شديدَ الطعنِ على المُسلِمينَ شديدَ الحسدِ لهم على نَفَرٍ من أصحابِ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم من الأوسِ والخزرجِ في مجلسٍ قد جمَعَهُم يتحدَّثُونَ فيه فغاظَهُ ما رأى من أُلْفَتِهِم وجماعتِهِم وصلاحِ ذاتِ بينِهِم على الإسلامِ بعد الذي كان بينَهم من العداوةِ في الجاهليةِ فقال قد اجتَمَعَ ملأُ بني قيلةَ بهذِه البلادِ واللهِ ما لنا معهُم إذا اجتمع ملَؤُهم بها من قرارٍ فأَمَرَ فتىً شابًّا معه من يهودِ فقال اعمَدْ إليهم فاجلِسْ معَهم ثمَّ ذكِّرهُم يومَ بُعاثٍ وما كان قبْلَه وأنشدَهم بعضَ ما كانوا يتقاوَلُونَ فيه من الأشعارِ وكانَ يومَ بعاثٍ يومًا اقتتَلَتْ فيه الأوسُ والخزرجُ وكان الظَّفَرُ فيه للأوْسِ على الخزرَجِ ففَعَلَ فتكَلَّمَ القومُ عند ذلك وتنازَعُوا وتفاخَرُوا حتَّى تواثَبَ رجلانِ من الحَيَّيْنِ على الركبِ أوسُ بنُ قَيْظِيٍّ أحدُ بني حارثةَ مِنَ الأوسِ وجُبارُ بنُ صخرٍ أحدُ بني سلمةَ من الخزرجِ فتقاوَلا ثم قالَ أحدُهُما لصاحبِهِ إنْ شِئْتُمْ واللهِ رددناها الآنَ جَذَعَةً وغَضِبَ الفَرِيقانِ جميعًا وقالُوا قد فعلْنا السلاحَ السلاحَ موعِدُكُمُ الظاهرةَ والظاهرةُ الحَرَّةُ فخرجوا إليها وانضمَّتِ الأوسُ بعضُها إلى بعضٍ والخزرجُ بعضُها إلى بعضٍ على دَعْواهُمُ التي كانوا عليها في الجاهليةِ فبلغَ ذلك رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم فخرجَ إليهِم فيمَنْ معه من المُهاجِرينَ من أصحابِهِ حتَّى جاءَهم فقالَ **يا معشرَ المُسلِمينَ اللهَ اللهَ أبِدَعْوى الجاهليةِ وأنا بينَ أظهُرِكُم بعدَ إذْ هداكُمُ اللهُ إلى الإسلامِ وأكرَمَكُم بِهِ وقطَعَ بِهِ عنكُم أمرَ الجاهليةِ واستنقذَكُم به من الكفرِ وألَّفَ به بينَكم ترجِعونَ إلى ما كنتم عليه كفارًا** فعرَفَ القومُ أنها نَزغةٌ من الشيطانِ وكيدٌ من عدوِّهِم لهم فألْقَوُا السلاحَ مِن أيديهِم وبَكَوْا وعانَقَ الرجالُ بعضُهم بعضًا ثم انصرَفُوا مع رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم سامِعِينَ مطيعينَ قد أطْفَأَ اللهُ عنهم كيدَ عدوِّ اللهِ شاسِ وأنزلَ اللهُ في شأنِ شاسِ بنِ قيسٍ وما صَنَعَ {قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ واللهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ} إلى قوله {وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ} وأنزَلَ في أوسِ بنِ قَيظِيٍّ وجُبارِ بنِ صخرٍ ومَن كانَ معهما من قومِهِما الذين صنَعُوا ما صنعوا {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتابَ} إلى قوله {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ}

الشوكاني (ت ١٢٥٥)، فتح القدير ٥٤٨/١ • رويت هذه القصة مختصرة ومطولة من طرق.

الثبات في وجه هذا الكم الهائل من البغض والكراهية لا يكون إلا ببصيرة وسكينة من عند الله.

{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}[الفتح ٢٦]، مقابلة هذه الأشياء تحتاج إلى سكينة وبصيرة ونور {فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ}[الفتح ٢٦]، وتكلمنا عن السكينة في أول السورة.

{فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[الفتح ٢٦]، عندما أضاف الحَميّة إلى الجاهلية؛ أضاف السكينة إليه سبحانه وتعالى سكِينته هو سبحانه وتعالى، سكينة خاصة.

{فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[الفتح ٢٦]، فهذه الآية **تؤكد أنَّ القائد يحتاج أيضًا إلى التثبيت**.

ومن أخطر صفة تكون موجودة في القائد هي **صفة التوتر**، فإذا توتر القائد تجد التوتر انتشر، فعندما أتى خَبّاب بن الأرت رضي الله عنه في قمة الأذى ولديه حُفَر في ظهره من التعذيب، وقال يا رسول الله: (ألا تدعوا لنا ألا تستنصر لنا؟!)[٨]، والنبي مسندٌ ظهره للكعبة في مشهد في قمة السَكينة، أنت عندما ترى هذا المشهد تزداد يقينًا، أما لو كان القائد متوترًا فستشعر أنه لا فائدة وتيأس، حتى لو هدأ القائد بعد ذلك سيظل من الصعب أن يذهب ذلك التوتر عن المجموعة، فإذًا لا بد أن يجد الناس في القدوة؛ السكينة والطمأنينة، وكان ابن القيم يقول: "كثير ما كانت تحدث المشاكل ثم نذهب إلى ابن تيمية في السجن فما أن نراه إلا أن يثبتنا".

هو مسجون لكنَّه يُثَّبتهم وهم خارج السجن، **هو في سكينة وطمأنينة**.

{فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[الفتح ٢٦]، كلمة (السكينة) خاصة للنبي ﷺ وعلى المؤمنين.

بعد أن رزقك الله السكينة سيسهل عليك أن تمتثل لأوامره سبحانه وتعالي.

---

[٨] [عن خباب بن الأرت:] شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٩٤٣ • [صحيح]

{وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ}[الفتح ٢٦] أن تلتزم أوامر الله عزَّ وجل في هذه الظروف **تحتاج أن تكون مُتَّقٍ**؛ أن تعلم أنَّ الدافع الرئيسي ليس الجاهلية بل التقوى؛ أنت خائف من الله، فما الذي يمنع واحدًا من وسط جيش ألف وأربعمائة جندي أن يرمي مشركًا بسهم؟! جميعهم التزموا بالصلح وانظر إلى هذه النقلة؛ قبل قليل كانوا مبايعون على الموت والآن التزموا بالصلح؛ التزموا بكلام الله {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ}[الفتح ٢٦] بتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

وقيل **التقوى**: هي **كلمة "لا إله إلا الله"**، وقيل هي: **"كلمة الإخلاص"**، وكل هذه عمومات تفيد المعنى أنهم التزموا بكلام النبي ﷺ، وقيل عن الحسن البصري كلمة التقوى أي: "الوفاء بالعهد"، فهم بعد المعاهدة مع المشركين وعقدوا الصلح؛ لم ينقضوا عهدهم مع المشركين حتى لو شعروا أن فيه نوع من الجور؛ لكن طالما أعطى المسلم كلمة لا بد من الوفاء بها، كما قال النبي عندما جاء حذيفة وأبوه للنبي ﷺ أثناء غزوة بدر لكن وعدوا المشركين أنهم لن يقاتلوا مع النبي ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: (نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم)[٩] مع أن النبي كان يحتاج لجنود يقاتلون معه.

الله يصطفي من عباده من ينصر دينه، والله مطلع علي حال قلبك فأصلحه ليصطفيك.

{وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}[الفتح ٢٦]، جزء كبير من جيش النبي ﷺ من المهاجرين، أي كانوا من أهل مكة، ويقابلهم أيضًا المشركون من مكة، فانظر كيف اختار الله أناسًا انفصلوا عنهم –المهاجرين– وذهبوا للمدينة ثم عادوا ليقفوا في مواجهة بعضهم، فكأن الله يقول هؤلاء هم أهل التقوى، فالله يصطفي من بين المجتمعات أُناسًا يختار أن تكون لهم التقوى ويكونون أحق بذلك، فالله يقول عنهم هؤلاء اصطفيتهم، هؤلاء الألف وأربعمائة شخص كانوا اصطفاءً من الله {وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا}[الفتح ٢٦] كانوا يستحقون هذا الاصطفاء؛ {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[الأنعام ١٢٤] وكذلك أعلم حيث يجعل من ينصر رسالاته، اللهم استعملنا.

{وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا}[الفتح ٢٦] أي: عليم بفوائد الصلح وأنتم لا تعلمون، كما قال الله في الآيات التي تليها: {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا}[الفتح ٢٧].

---

[٩] [عن حذيفة بن اليمان:] خَرَجْتُ أنا وأبي حُسَيْلٌ، ونحنُ نُريدُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ ذَكَرَهُ نَحْوَهُ. يعني حديثَ: ما منَعني أنْ أشهَدَ بَدْرًا إلّا أنّي خرَجْتُ أنا وأبي، فأخَذَنا كُفّارُ قُريشٍ فقالوا: إنَّكم تُريدونَ محمَّدًا؟ فقُلْنا: ما نُريدُ إلّا المدينةَ، فأخَذوا مِنّا عهْدَ اللهِ وميثاقَهُ لَنَنْصَرِفَنَّ إلى المدينةِ، ولا نُقاتِلُ معه، فأتَيْنا رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأخبَرْناهُ فقال: انصَرِفا نَفي لهم بعَهْدِهم، ونَستعينُ اللهَ عليهم. شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج مشكل الآثار ٦٥٧ • إسناده قوي

الله يبتلينا فاذا نجحنا في هذا الاختبار يأتي الفرج، وهذا ما حدث مع الصحابه.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}[الفتح ٢٧]، **فبعد انتهاء الصلح وحصول ضبط النفس، ولم يخالف صحابي واحد كلام النبي** ﷺ وكان من أشد الأمور على قلوبهم، وهم في الطريق عائدون، ويبدو عليهم الحزن والكآبة، **تنزل عليهم الآيات تُبشرهم** فيفرحوا، فيظهر المنافقون ويقولون للمؤمنين أنَّ النبي ﷺ خدعهم! لماذا؟ لأن النبي ﷺ وهو ذاهب قال لكم إنَّه رأى رؤية بأنه يطوف بالبيت، وعندما رأى النبي ﷺ الرؤيا رأى أنه أدى العمرة لآخرها {مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}[الفتح ٢٧] وستكونون آمنين، فأين هذا الكلام؟! فكأن الرؤية التي رآها النبي ﷺ كانت دافعًا لهم للذهاب وكانت بلاءً لهم عند الرجوع –مثل رؤيا يوسُف أو رؤيا الملك– الرؤيا التي رآها النبي ﷺ قبل ذهابهم وهم لا يعلمون ما الذي سيحدث، رأى النبي ﷺ رؤيا وقام مستبشرًا ﷺ، وأخبر بذلك أصحابه أنَّه رأى أنهم سيدخلون المسجد الحرام ويطوفون ويكونون آمنين، وتنتهي العمرة محلقين ومقصرين؛ فاستبشروا فانتفضوا، فكانت الرؤية دافعة لهم للذهاب، فعندما حدث الصلح كانت الرؤية بلاءً وابتلاءً عند الرجوع.

فسورة الفتح كما عَلِمنا أنها نزلت بعد الصلح وهم عائدون من الحديبية إلى المدينة، وهُنا الله سبحانه وتعالى يقول: {لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}[الفتح ٢٧] واللام لام القسم أو الموطئة للقسم، والتأكيد بـ "لقد" وبصيغة الماضي {لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}[الفتح ٢٧] أي أنَّ الأمر منتهي، فهل طافوا بالبيت؟ لا، إذًا كيف {لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}[الفتح ٢٧]؟! فهذا من **استعمال الماضي في المستقبل لليقين بالوقوع**، فتخيل أنَّ المنافق يشكك في الحدوث، والله يقسم بالحدوث أي بأنَّ هذا سيحدث، فلا بد أن تُقابَل شبهات المنافقين باليقين من المؤمنين؛ فعندما يطعن المنافق في شيء في الدين **لا بد أن تكون موقنًا** لا يكفي أن ترد ردًا عابرًا، "لقد" هذه لام القسم أي أنَّ الأمر منتهي، و"صدق الله" دائمًا تأتي عند تساؤلات الصحابة، مثل قولهم في أُحد وهم عائدون ولا يفهمون ما حدث فقالوا {أَنَّىٰ هَٰذَا}[آل عمران ١٦٥] فقال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ}[آل عمران ١٥٢] الله وعدكم بالنصر وأنتم انتصرتم ولكنكم أنتم من هزمتم أنفسكم.

لا يرفع النصر إلا بذنب، "لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" هذه قاعدة ثابتة.

{إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ}[آل عمران ١٥٢] أي: استمر تحقيق الوعد من الله، حتى إذا فشلتم، فأنتم مَن غيرتم وليس الله، فأحيانًا تأتي لنا وعود من الله، ودائمًا وعود الله بالنصر وبالتمكين تكون بلاءً؛ فهي تختبر يقينك لأنَّها من الممكن ألا تحدث وأنت على قيد الحياة.

كيف نتعامل مع وعود الله ؟

فالنبي ﷺ رأى رؤية أنَّه يطوف بالبيت –هذه النقطة خطيرة جدًا تحدثت عنها في مسألة كيف نتعامل مع وعود الله–.

النبي ﷺ رأى رؤيا؛ أنَّه يطوف وأنَّ العمرة ستنتهي في أمان، فالنبي ﷺ عندما رأى الرؤية هل حدد زمنًا معينًا؟ لا لم يحدد أي عام، ومَن أكثر مَن رد على الرؤيا وتساؤلات الصحابة؟ سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، وانظر كيف تعلّم الدرس، عندما نزل وعد الله ﷻ في سورة الروم {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ}[الروم ١–٤] قال الله في بضع سنين، هُنا تدخَّل أبو بكر الصديق في تحديد للموعد –في بضع سنين– راهن أبو بكر الصديق رضي الله عنه المشركين على أن الروم سينتصرون بعد ست أو سبع سنوات، فهُنا حدث تدخل في تحديد زمن الوعد –انتبه لهذه النقطة– عندما مرت السنوات الست ولم تنتصر الروم على فارس بدأ بعض المؤمنين يُصاب بالقلق والاضطراب، وما سبب هذا القلق؟ **التدخُّل في تحديد موعود الله**، يدّعي إنسانٌ فيقول أنَّ الله سينصر هذه الطائفة تحديدًا أو في هذا الوقت تحديدًا أو في الموقف تحديدًا! فهذه التحديدات قد تتخلَّف فيحدث في قلوب أهل الإيمان اضطراب وشك، فسيدنا أبو بكر عندما تعلّم هذا الدرس وانتصر الروم بعد بضع سنين –والبضع من ثلاثة إلى تسعة ولا يُشترط ستة– فهُنا التزم سيدنا أبو بكر بالوعد، **فطالما أتى الوعد مجملًا نتركه مجملًا**، طالما لم يقل هذا العام إذًا فليس هذا العام؛ لأن التدخل في تحديد الوعد يؤدي أحيانًا إلى الشك، أن يلتقي جيش من أهل الإيمان مع جيش من الكفار ثم يقسم أحد الناس أن هذه الطائفة حتمًا ستنتصر بدون بينة أو بدون بصيرة فيُهزمون، لماذا؟ قد يكون هؤلاء المؤمنون قد عصوا الله فانهزموا أو بسبب سنة أخرى من سنن الله، فيضطرب أهل الإيمان، فأحيانًا عدم فهم السنن يؤدي إلى بلبلة وإلى كثرة سؤال {أنّى هذا}[آل عمران ١٦٥]؟! كيف يحدث هذا؟ كيف نُغلب؟! كيف نموت؟! هذه التساؤلات بسبب حدوث تحديدات في وعود الله، فأخبر الله عزَّ وجل يؤكد على حدوث الوعد وأنه سيحدث، حتمًا سيحدث.

ما هي عمرة القضية؟

المؤمنون عائدون وقد اتفقوا على صلح مُدَّته عشر سنوات، أي بأسباب البشر أمامهم عشر سنوات، فتخيَّل! لكنهم كانوا واثقين من حدوث وعد الله {لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ}[الفتح ٢٧] ومن كرامة الله ﷻ لنبيه ﷺ ؛ أنَّه ردَّهم في العام المقبل مباشرةً، وأدُّوا عمرة سمّاها العلماء "**عمرة القضية**" وسمّاها البعض "**عمرة القضاء**"، لكن كثير من العلماء يختارون عمرة القضية؛ لأنَّ هذه لم تكن قضاءً عن العمرة الأولى، وقضية معناها: ما تقاضاه المؤمنون مقابل الصلح بينهم.

تحقيق وعد الله للمؤمنين وتأكيد أنه لم يكن ليحدث إلا بمشيئة الله.

{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ **إِن شَاءَ اللَّهُ** آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ}[الفتح ٢٧]. لماذا قال الله هنا "إن شاء الله"؟ قال بعض أهل العلم: **استثنى الله فيما يعلم لكي يستثني البشر فيما لا يعلمون**، يُعلّمنا اللهﷻ ؛ فالمستقبل أنت لا تعلمه ولكن الله يعلمه، فحينما يقول الله ﷻ: إن شاء الله **هذه تعليم للبشر**. وقال بعضهم: **ليس الغرض منها التعليق، ولكن الغرض منها التحقيق**، أي: حتمًا سيحدث؛ لأنَّ الله شاء أنَّ هذا سيحدث إذًا سيحدث، فكلمة إن شاء الله أي أنَّ **دخولكم المسجد الحرام مرتبط بمشيئة واحدة فقط؛ وهي مشيئة الله، وليست مرتبطة بمشيئة المشركين**.

المنافقون طبعهم لا يتغير فحتى بعد أن جاء نصر الله وشاهدوه بأم أعينهم لم يخلصوا إيمانهم لله تعالى بل أندسوا داخل صفوف المؤمنين وتخلفوا عن حلق الرؤوس فقصروا.

{لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ}[الفتح ٢٧]. بالطبع التحليق أفضل من التقصير، ودعا النبي ﷺ ثلاثًا للمُحلّقين ومرة واحدة للمقصرين[١٠]، وفي بعض الآثار -وإن كان ضعّفها كثير من أهل العلم- أنَّ الذي قصّر مع النبي ﷺ في هذه العمرة قيل كانت علامة نفاق؛ أي أنه كان غير موقن، وكان عزيز عند العرب أن يحلق الشعر في غير عمرة، فلم يعتبروا أن هذه عمرة فقصّروا، ولم يثق في كلام النبي ﷺ.

[١٠] [عن عبدالله بن عمر:] أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ، قالَ: اللَّهُمَّ ارْحَمِ المُحَلِّقِينَ قالوا: والمُقَصِّرِينَ؟ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: اللَّهُمَّ ارْحَمِ المُحَلِّقِينَ قالوا: والمُقَصِّرِينَ؟ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: والمُقَصِّرِينَ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٣٠١ • [صحيح]

لتثبت في المواقف الحاسمة، في المواقف التي لا تجد لها تفسيرا منطقيا ومخرجا بالعقل البشري، إذا أيقنت "أن الله يعلم وأنت لا تعلم" سينتهي هذا الإشكال.

{فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}[الفتح ٢٧] نقطة هامة جدًا في تشريعات الله، أنَّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون؛ لذلك في دعاء الاستخارة تقول: أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، فأنت تعلم وأنا لا أعلم، وأنت لا تقدر وأنا لا أقدر وأنت علام الغيوب[١١].

عليك أن توقن بذلك لأنك لو لم توقن أنتقلت من التسليم لأمر الله إلي الإعتراض علي أمر الله.

فكيف يستدرك الإنسان على شرع الله أو على قدَر الله؟! فدائمًا هذه الآية تحل لك الأزمة {فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا}[الفتح ٢٧] غرض الشيطان دائمًا أن تستدرك على قدر الله وعلى شرعه:

- أن تستدرك **على شرعه** أي: تقول لماذا أمرنا الله بهذا، لماذا فعل الله هذا، فهذا كان المدخل لإبليس عليه لعنة الله مع آدم عليه السلام عندما قال له: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ}[الأعراف ٢٠] يريد أن يجعلك تقول لماذا أمرني الله بكذا؟ هذا في الشرع.
- أما **في القدر** فقال النبي ﷺ: (ولا تقل لو أني فعلت كذا وكذا فإن لو تفتح عمل الشيطان)[١٢]، فكلمة (لو) كأنها تنادي على الشيطان تعالَ وافعل ما شئت في قلبي؛ لأنَّ الغرض الأساسي للشيطان أن يجعلك تقف أمام شرع الله معترضًا أو أمام قدر الله معترضًا.

فالمدخل الأساسي للشيطان أن تعترض، لا أن تعصي فقط، أن تصل إلى الاعتراض على الشرع أو على القدر.

---

[١١] [عن جابر بن عبدالله:] كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنا الِاسْتِخارَةَ في الأُمُورِ كُلِّها، كما يُعَلِّمُنا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يقولُ: إذا هَمَّ أحَدُكُمْ بالأمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِن غيرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي أسْتَخِيرُكَ بعِلْمِكَ وأَسْتَقْدِرُكَ بقُدْرَتِكَ، وأَسْأَلُكَ مِن فَضْلِكَ العَظِيمِ، فإنَّكَ تَقْدِرُ ولا أقْدِرُ، وتَعْلَمُ ولا أعْلَمُ، وأنْتَ عَلّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هذا الأمْرَ خَيْرٌ لي في دِينِي ومَعاشِي وعاقِبَةِ أمْرِي - أوْ قالَ عاجِلِ أمْرِي وآجِلِهِ - فاقْدُرْهُ لي ويَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بارِكْ لي فِيهِ، وإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّ هذا الأمْرَ شَرٌّ لي في دِينِي ومَعاشِي وعاقِبَةِ أمْرِي - أوْ قالَ في عاجِلِ أمْرِي وآجِلِهِ - فاصْرِفْهُ عَنِّي واصْرِفْنِي عنْه، واقْدُرْ لي الخَيْرَ حَيْثُ كانَ، ثُمَّ أرْضِنِي قالَ: «ويُسَمِّي حاجَتَهُ».
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١١٦٢ • [صحيح]

[١٢] [عن أبي هريرة:] الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللَّهِ وَلا تَعْجَزْ، وإنْ أَصابَكَ شيءٌ، فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذا وَكَذا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَما شاءَ فَعَلَ، فإنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦٦٤ • [صحيح]

{فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا}[الفتح ٢٧] ومن رحمة الله أن جعل لكم شيئًا **يُصَبِّركم**؛ {فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا}[الفتح ٢٧].

اختلف العلماء في **الفتح القريب** هل هو **صلح الحديبية** كان فتحًا لأجل الدعوة، أو **خيبر** كانت فتحًا قبل العمرة، فالله هُنا يبشرهم بفتح قريب سيحدث قبل أن تتحقق البشرى كنوع من الطُّمأنينة، سواء صلح الحديبية أو فتح خيبر.

{هو} سبحانه وتعالى -أظُنها المرة الثالثة معنا في السورة - أي هو المختصّ بذلك:

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ}[الفتح ٤].

{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ}[الفتح ٢٤].

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا}[الفتح ٢٨].

أرسل الرسول لينصره لا ليتركه، فكيف تظنُّون أن الله ﷻ يخذل نبيه؟!

{هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلهُدَىٰ وَدِينِ ٱلحَقِّ}[الفتح ٢٨] **جاء بكلمات الحق**، لا بد أن تلتزموا بها.

{بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ}[الفتح ٢٨] قيل: **الأفعال والأقوال**.

{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} هذه الآية من أوضح الواضحات بأن **دين الإسلام هو الحق** فوق بقية الأديان، وسوف يظهره الله ﷻ فوق بقية الأديان، وسوف تكون له النصرة التامة.

قال بعضهم إنَّ هذا قد تحقق، وقال بعضهم إنَّ هذا سوف يكتمل اكتمالًا كاملًا -كما اختار الطبري- بنزول عيسى عليه السلام وقتله للدجال.

دين الإسلام هو الحق فما مسألة ظهوره علي باقي الأديان ؟

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ}[الفتح ٢٨]، مسألة الظهور تدل على وجود القتال والمفاصلة والمنازعة، وستظل هذه الأديان متعاركة متنازعة (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون

اليهود)[١٣] فمسألة أن نقوم بعمل مُجمَّعًا للأديان أو تصالح للأديان أو تصالح للحضارات، هذا لن يحدث، هذا من تقدير الله، فالأمر قدري سيظل هناك تنازع والظهور النهائي **والعاقبة النهائية تكون للإسلام بتقدير من الله**، والله تكفَّل بذلك {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[الفتح ٢٨].

هذه البشرى -بشرى الظهور على الدين كله- جاءت وهم عائدون من صلحٍ يشعرون فيه بالجَوْر والضيم، في أوقات الاستضعاف أو الإحساس بالحزن ينبغي أن نكثر من البُشرَيات، فهم كانوا عائدون يعتريهم الحزن والكآبة، يأتيهم في هذا الوقت بشرى بالتمكين على كل الأرض، هكذا كان هدي النبي ﷺ؛ عندما خرج من مكة مُطارَدًا هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ويأتيه سراقة فيُبشره بسواري كسرى وقيصر، في الأحزاب وهم محاصرون، والمشركون يعتقدون أنَّ الدين قد انتهى تمامًا ويضرب الحجر ﷺ وهو يحفر الخندق، فتحدث إضاءة فيقول: الله أكبر! أُوتيتُ مفاتيح كسرى وقيصر[١٤]. **بُشرَيات غالبًا تأتي في أوقات الاستضعاف**، فهذه البشرى جاءت وهم عائدون إلى المدينة بعد هذا الصلح {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[الفتح ٢٨].

ثم تأتي هذه الآية في الختام، هذه الآية العظيمة التي جمعت أوصافًا لصحبِ النبي ﷺ استحقوا بها أن يكونوا في معية النبي ﷺ، هذه الأوصاف جاءت بعد آية قوله سبحانه وتعالى: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}[الفتح ٢٨] أي: لن تظهروا على الدين كله إلا بهذه المواصفات، **لن يحدث تمكين ولن يحدث ظهور إلا بهذه الأوصاف**، فإذا تخلَّفت هذه الأوصاف فيكم فسوف تبتعدوا عن التمكين بقدر ابتعادكم عن هذه الأوصاف.

ما هي أوصاف التمكين لدين الله الحق ؟

{لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}[الفتح ٢٨-٢٩].

---

[١٣] [عن أبي هريرة:] لا تَقُومُ السّاعَةُ حتّى يُقاتِلَ المُسْلِمُونَ اليَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ المُسْلِمُونَ حتّى يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِن وراءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فيَقولُ الحَجَرُ أوِ الشَّجَرُ: يا مُسْلِمُ يا عَبْدَ اللهِ هذا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعالَ فاقْتُلْهُ، إلّا الغَرْقَدَ، فإنَّه مِن شَجَرِ اليَهُودِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٩٢٢ • [صحيح]

[١٤] [عن البراء بن عازب:] - لَمّا أمرَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ أن يُحفَرِ الخندقَ عرضَ لنا حجَرٌ لا تأخُذُ فيهِ المعاولُ فاشتكينا ذلِكَ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فجاءَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فألقى ثوبَهُ وأخذَ المعولَ وقالَ بسمِ اللَّهِ فضربَ ضربةً فكسرَ ثلُثَ الصخرةِ ثم قال اللَّهُ أكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ الشّامِ واللَّهِ إنّي لأبصِرُ إلى قصورِها الحمراءِ الآنَ من مكاني هذا قال ثمَّ ضربَ أخرى وقال بسمِ اللَّهِ وكسرَ ثُلثًا آخرَ وقالَ اللَّهُ أكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ فارسَ واللَّهِ إنّي لأبصرُ قصرَ المدائنِ الأبيضَ ثمَّ ضربَ الثّالثةَ وقالَ بسمِ اللَّهِ فقطعَ الحجرِ وقالَ اللَّهُ أكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ اليمنِ واللَّهِ إنّي لأبصر باب صنعاءَ
عبد الحق الإشبيلي (ت ٥٨١)، الأحكام الصغرى ٥١٠ • [أشار في المقدمة أنه صحيح الإسناد] • أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٥٨)، والروياني في «المسند» (٤١٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤٢١/٣)

- وأول أوصاف التمكين **الاقتداء بالنبي ﷺ والرضا به نبيًّا**.

تقول رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا[١٥]، أن ترضى به رسولًا {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}[الفتح ٢٩] إذا لم يكتبوها بحَميتهم الجاهلية؛ فالله يذكرها في كتابه، هم محوها ورفضوا أن يكتبوا محمد رسول الله في صحيفة الصلح؛ فقال الله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}[الفتح ٢٩] وإن أبى المشركون، محمد رسول الله ﷺ، لكن الدين لا بد له من نصرة، لا بد له من أعوان، لا بد له من رجال، فقال: {وَالَّذِينَ مَعَهُ}[الفتح ٢٩].

إذًا بدايات التمكين بوجود القدوة النبي ﷺ أو مَن يسير على هديه ﷺ.

- ثم بأتْباع يحيطون به ويمنعونه ويُعزِّروه ويُوقروه –كما ذكرنا في الدرس الثاني أو الثالث في سورة الفتح–

{وَالَّذِينَ مَعَهُ}[الفتح ٢٩] الاقتداء بالنبي ﷺ، اعتراف ورضا به نبيًّا ورسولًا، ثم **أتْباع**.

لا يقوم الدين هكذا بنفسه ولا برجل واحد بل بأمة كاملة متعاونة، يجتمعوا علي قلب رجل واحد تكون رآيتهم كلمة الله هي العليا، ولا ينتصرون لأنفسهم، فتكون حميتهم لدين الله تعالي وحده لا شريك له.

قال النبي ﷺ (لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ ولم يؤذَى أَحَدٌ وأُخِفْتُ فِي اللهِ ولم يُخَافُ أحد)[١٦]. من معانيها مرت عليَّ أوقات كنت وحيدًا، بدأ النبي ﷺ الدعوة وحده ﷺ –كما سيأتي المثل الذي جاء في الإنجيل {كَزَرْعٍ}[الفتح ٢٩] كان وحيدًا {أَخْرَجَ شَطْأَهُ}[الفتح ٢٩] أخرج شطئه–.

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}[الفتح ٢٩] ثم وصف الصحابة بوصفٍ مُختصرٍ مجمل رائع فقال: {وَالَّذِينَ مَعَهُ}[الفتح ٢٩] لم يتركوه لحظة، لم يتركوه لحظة، في كل موطن كانوا معه، **هكذا يتم النصر**، وكانوا معه لأنَّه كان معهم ﷺ، لم يتركهم، لم يتركهم في الهجرة فقد هاجر، لم يأمرهم بالهجرة ولم يهاجر، بل هاجر، لم يأمرهم بالجهاد ولم يجاهد بل جاهد، لم يأمرهم بحفر الخندق ولم يحفر، بل حفر معهم ﷺ؛

---

[١٥] [عن خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم:] ما مِن عبدٍ مسلمٍ يقولُ حينَ يُصْبِحُ وحينَ يُمْسي ثلاثَ مرّاتٍ رضيتُ باللهِ ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمَّدٍ صلّى اللهُ عليه وسلَّم نبيًّا إلّا كان حقًّا على اللهِ أن يُرضِيَه يومَ القيامةِ
الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ١١٩/١٠ • رجاله ثقات

[١٦] [عن أنس بن مالك:] لقد أُوذيتُ في اللهِ وما يُؤذى أحَدٌ ولقد أُخِفْتُ في اللهِ وما يُخافُ أحَدٌ ولقد أتَتْ عليَّ ثلاثٌ مِن بيْنِ يومٍ وليلةٍ وما لي طعامٌ إلّا ما واراه إبْطُ بلالٍ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦٥٦٠ • أخرجه في صحيحه

لذلك بتَتَبُّع كلمة محمد – وهذه دراسة أخرى ليست دراسة المصطلحات، بل "دراسة الأسماء أو الصفات" التي تتكرر في القرآن– **كلمة محمد ﷺ جاءت في القرآن في أربعة مواضع** بلفظ محمد وهو غير أحمد –الخامسة أحمد في سورة الصف، ولها دلالة معينة لماذا جاءت على وزن أفعل تفضيل أحمد في سورة الصف– إنما كلمة محمد أو {يا أيها النبي} جاءت ثلاثة عشر مرة في القرآن الكريم أو {يا أيها الرسول} جاءت مرتين ف القرآن الكريم، جاءت في مواطن معينة بدلالات معينة.

هُنا محمد، جاءت في أربعة مواطن في القرآن:

جاءت في سورة آل عمران: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ}[آل عمران ١٤٤].

وجاءت في سورة الأحزاب: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ}[الأحزاب ٤٠].

وجاءت في سورة القتال –سورة محمد ﷺ–: {وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ}[محمد ٢].

وجاءت في سورة الفتح: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ}[الفتح ٢٩].

نجد أنَّ المواطن الأربعة **كلها مواطن ابتلاء**، سواء **هزيمة أُحد في آل عمران**، أو في **تجمع الأحزاب في سورة الأحزاب**، أو في **لحظات القتال في سورة مُحمد**، أو في **لحظات الكآبة والحزن في صلح الحديبية**، كان ﷺ معهم في كل المواطن لم يتركهم، وكان يتقدمهم في كل المواطن ﷺ.

إذًا حتى يكونوا معه فكان معهم ﷺ لم يتركهم، لم يتركهم في الأزمات كان معهم في كل أزمة، نجد المواطن الأربعة مليئة بالأزمات ومليئة أيضًا بالبُشرَيات، سواء سورة آل عمران أو سورة الأحزاب أو محمد أو الفتح، مليئة بالابتلاءات ومليئة بالبُشرَيات **وهكذا المِنَح تأتي دائمًا من المِحَن**.

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ}[الفتح ٢٩] كانوا معه في كل المواقف في آل عمران، في الأحزاب، في القتال، في الفتح، في الحديبية، في بدر، كانوا معه صلى الله عليه وسلم، لم يخرج غزوة وحيدًا ﷺ، كانوا معه في كل المواطن، بل حتى بعد إشاعة مقتله، قال أنس بن النضر رضي الله عنه: (قوموا فموتوا على ما مات عليه نبيكم)[١٧]، {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ

[١٧] انْتَهَى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، فِي رِجَالٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، قَدْ أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ، فَقَالَ: مَا يُجْلِسُكُمْ؟ فَقَالُوا: قُتِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: مَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَهُ؟ فَقُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ. دلائل النبوة للبيهقي، ١١٢٩.

أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا}، ومات أنس رضي الله عنه وهو يظن أنَّ مُحمدًا ﷺ قد مات، فهو ذهب يقاتل وقُتل ولم يعلم أنها كانت إشاعة مقتل النبي ﷺ، واستمر يقاتل إلى أن استُشهد رضي الله عنه، وهو يظن أن محمدًا ﷺ قد مات.

قضية الولاء والبراء هي التطبيق العملي للتوحيد:

{وَالَّذِينَ مَعَهُ}[الفتح ٢٩] بدأ بالوصف القلبي -وصف المشاعر والقلوب- {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[الفتح ٢٩] **قضية الولاء والبراء**، هذه القضية المحورية في الدين، قضية مفصلية في ترابط المؤمنين مع بعضهم وتلاحمهم كالجسد الواحد، وغياب هذه القضية والبدء بها في الأوصاف يدل أنها قضية محورية غيابها يؤدي إلى انهيار الجسد المؤمن ولا تقوم له قائمة، كيف يظهر على الدين كله وهُم متناحرون، يضعون أيديهم في أيدي أعدائهم؟ كيف يُمَكَّنون؟! كيف يظهرون؟! كيف ينتصرون؟!

تفصيل النص القرآني للحمية المحمودة:

{أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ}[الفتح ٢٩] عندما أخبر الله ﷻ أنَّ حَمية الجاهلية مذمومة حتى لا يظن الذي يقرأ الآيات أنَّ كل حَمية مذمومة وأنَّ كل غضب مذموم وأنَّ كل عنف مذموم، لكن له موطن {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[الفتح ٢٩]، والجمع بين الضِدَّين؛ الشدَّة والرحمة **يدل على أنهم رَوَّضوا أنفسهم وأخلاقهم لموافقة شرع الله**، بمعنى؛ أحيانًا يكون هناك إنسانًا طيبًا وأخلاقه هادئة، فتجده هكذا دائمًا مع المؤمن ومع الكافر؛ لأنها طبيعته الشخصية، وأحيانًا تجد شخصًا طبعه غليظ، خلق الله ﷻ الخلق كما رُوي في بعض الآثار من طينة مُجمَّعة من الأرض عندما نزل -أيًّا كان المِلك الذي نزل سواء جبريل أو ملك الموت- المِلك نزل وأخذ مجموعة من الطين من الأرض فجاء الناس منهم الطَيب والغليظ والسهل والحَزَن على حسب الطينة التي خُلق منها، فالناس أنواع أحيانًا يكون الإنسان طبعه غليظًا خاصّة لو نشأ في بادية يكون طبعه فيه شدة، وتجد إنسانًا آخر طبعه فيه رقة.

قضية الولاء والبراء وقضية الشدة علي من يأذونا من الكفار لا تعتمد علي طبيعتك الشخصية لكن علي عقيدتك الصحيحة.

الصحابة لم يتركوا أنفسهم لطباعهم فالقضية ليست أنني بطبعي طيب فأكون طيبًا مع كل الناس أو أنني شديد فأكون شديدًا مع كل الناس، لا بل هو يعلم أين يضع الشِدَّة وأين يضع الرحمة، **رَوَّضوا أنفسهم** فتجد أنَّ الذي طبعه فيه رقة رَوَّضَ نفسه ليكون شديدًا على الكفار، وتجد الذي فيه غلظة

رَوَّضَ نفسه ليكون رفيقًا بإخوانه المؤمنين؛ لذلك كان أبو بكر رضي الله عنه يستعين بعمر بن الخطاب، هو يعلم عن نفسه أنَّ طبعه فيه رقة فيحتاج إلى عمر بن الخطاب معه، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما كانا يتكاملان وكل منهما له طبع معين.

ما هي الشدة المطلوبة، وعلي أي صنف من الكفار تكون ؟

{أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ}[الفتح ٢٩] وقيل إنَّ القضية؛ **الشِدَّة**، قال بعضهم **إنَّ الشِدَّة هُنا ليست على كل الكفار**، وإنما على الكفار الصادّين المحاربين، وهذا أمر له جزء كبير من الصحة بالفعل، **أنت لم تُؤمر بالشدة مُطلقًا**، **والبغض غير الشدة**؛ لذلك قالوا على الكفار؛ **الألف واللام للعهد** أي الكفار المذكورين في هذه السورة؛ على الكفار الذين صدُّوكم ومنعوكم، **فكُل مَن صدَّك وحاربك ومنعك؛ تكُن شديدًا عليه**، أما مَن سالمك فأنت تعامله بالقسط وتحسن إليه، ومعاملته مُفصّلة في كتب الفقه.

{رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[الفتح ٢٩] أي: بينهم وبين بعضهم، البينية التي بينهم مليئة بالرحمة كأنهم سدّوا الفجوات، هذه البينية التي بينهم مُلئت بالرحمات {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}[الفتح ٢٩] كل الأخلاق التي بينهم مليئة بالرحمة، قالوا كالعبد لسيده وكالولد لوالده، انظر إلى المعاملة.

أغرس في قلب طفلك وصف "أشداء رحماء":

ومن العجيب أنَّ الأوصاف تبدأ بهذه قبل الصلاة، فهذه المشاعر –مشاعر الإيمان– التي تكون مُتَّقدة دائمًا؛ غيظًا من الكفار وحُبًّا لأهل الإيمان، **من أهم المشاعر التي ينبغي أن تُرسّخ في قلوب أهل الإيمان**، بل في قلوب الصبية. {أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُم}[الفتح ٢٩] هذا وصف قلبي؛ **أن يوصف القلب؛ أشدَّاء رُحماء**.

كثرة الحركة لنصرة الدين لا ينبغي أن تكون مانعًا لك عن كثرة العبادة:

{أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ}[الفتح ٢٩] لو أحببت أن تراهم في أي وقت –أيًّا كان الرائي– قيل الرائي ما تصح منه الرؤية، فأيًّا كان الرائي وجاءت بصيغة المضارع، أيًّا كان الوقت، وأيًّا كان الشخص الذي سينظر إليهم فستراهم {رُّكَّعًا سُجَّدًا}[الفتح ٢٩] وقيل إنَّ بعضهم ذهب ليتفاوض مع النبي ﷺ في الصلح، فلما جاء كانوا يُصلون، فرأى منظرًا لم يرَ مثله قط، انبهر بعبادتهم، {تَرَاهُمْ رُكَّعًا

سُجَّدًا﴾[الفتح ٢٩] لم يقل رُكَّعًا (و) سُجَّدًا، وكأنهم في نفس اللحظات يقومون بالركوع والسجود من كثرة الصلاة ومن كثرة أفعالهم، أو كأن من كثرتهم جزء منهم راكع وجزء منهم ساجد.

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[الفتح ٢٩] **هذا الوصف المضارع وصف العبادة المستمرة جاء في وقت المعركة**، في وقت بيعة على الموت -بيعة الرضوان- ثم جاء في صلح الحديبية، فالواقع واقع حركي كانوا يجاهدون ويبايعون على الموت، ثم صلح ثم عودة، ثم يأتي الوصف بالعبادة وكأن **الحركة لا ينبغي أن تمنعك عن العبادة**، **كثرة الحركة لنصرة الدين لا ينبغي أن تكون مانعًا لك عن كثرة العبادة**، بل أنَّ هذه العبادة زاد للجهاد، زاد للحركة.

كان النبي ﷺ في الأحزاب يصلي قيام الليل، وفي غزوة بدر كان قائمًا يصلي ﷺ، وهذه العبادة هي التي تقوم بضبط المشاعر، وأحيانًا كثرة العبادة بدون تعامل مع الناس -أي شخص منعزل ويتعبد أحيانًا- تجعل الإنسان يتكبر؛ لذلك جاء الوصف في البداية ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[الفتح ٢٩] فالإنسان المتعبد لا بد أن يختلط بالناس ويصبر ويصابر، قال النبي ﷺ: (الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم)[١٨].

وكأن النبي ﷺ يشير أنَّ كل خُلطة لا بد منها من أذى؛ الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من الذي لا يخالط ولا يصبر، فلا تحلمنّ بخُلطة ليس فيها أذى، كل خُلطة مع الناس فيها أذى، فالعبادة مع الاختلاط بالناس قد تكون زادًا لذلك، لكن عندما تتعبد بدون اختلاط بالناس قد ينمو بداخل الإنسان نوع من الكبر.

﴿تَرَىٰهُم رُّكَّعا سُجَّدا﴾[الفتح ٢٩] الغرض الرئيسي من هذا كله؛ **ألا يفكروا إلا في رضا الله**، ألا يبحثوا إلا عن رضاه -توحيد المقصد والنية والوجهة-، لا يريدون شيئًا من الأرض ولا شيئًا من الناس ﴿يَبْتَغُونَ فَضلا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[الفتح ٢٩] كل أمله أن يرضى الله عنه فقط، وكلما استطاع الإنسان أن يحقق هذا الغرض وأن يجعل هذه نيته؛ فإنه يستطيع بسلاسة أن يبايع على الموت ثم يستطيع بسلاسة أن يرضى بالصلح؛ لأن غرضه رضا الله وليس غرضه أن يهزم فلانًا.

[١٨] [عن عبدالله بن عمر:] المؤمنُ الَّذي يخالطُ النَّاسَ ويصبرُ على أذاهم أعظمُ أجرًا منَ المؤمنِ الَّذي لاَ يخالطُ النَّاسَ ولاَ يصبرُ على أذاهم الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٣٢٧٣ • صحيح • أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٢) واللفظ له، وأحمد (٥٠٢٢) باختلاف يسير

{يَبتَغُونَ فَضلا مِّنَ ٱللَّهِ}[الفتح ٢٩] قيل: الجنة، { وَرِضْوَانًا}[الفتح ٢٩] أي: **أن يرضى عنهم بعد دخولهم الجنة.**

ما هي العبادة المثمرة، وكيف تحققها؟

هناك نوع من العبادة يسمى "**العبادة المثمرة**" عبادة آتت أُكُلها، عبادة أصبحت مُغيِّرة في الإنسان؛ تُغيّره للأفضل، بمعنى أنَّه من الممكن أن يقوم الإنسان بعبادات ولا يتغير، لا يوجد تغيُّر في الأخلاق، والمفترض أنَّ كل عبادة تقوم بها لا بد أن تساعدك على تغيير الخُلُق، تجتهد وتتعبد وتدعو الله عزَّ وجل؛ فتكون العبادة مثمرة، **فالله سبحانه وتعالى عندما أمر بعبادته ذكر الأثر من العبادة؛ فلابد من أثر للعبادة.**

وعندما ذكر الله سبحانه وتعالى عبادتهم؛ ذكر الأثر من العبادة {تَرَىٰهُم رُكَّعا سُجَّدا يَبتَغُونَ فَضلا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُم فِى وُجُوهِهِم مِّن أَثَرِ ٱلسُّجُودِ}[الفتح ٢٩] **هذا أثر العبادة**، وهذه عبادة مثمرة، مثلًا هناك شخص عندما تقول له: إنَّ جلسة الضحى وكثرة التسبيح لهما أثر على القلب، ويعينان الإنسان على الصبر على ضيق الرزق، والصبر على أذى الناس، وأنَّ التسبيح دائمًا يُذكَر مع الصبر في القرآن، فيقول لك: حسنًا، أنا أجلس جلسة الضحى، ولا أشعر بأي أثر! هذا لأنك جلست جلسة الضحى وأنت لا تدري ما الذي تقوله، وفِكرك مشغول هل طلعت الشمس أم لا؟ فكيف ستكون العبادة مثمرة هكذا؟! أو في قيام الليل: تقوم في رمضان وفيك تُخمة من كثرة الأكل، فتقضي الصلاة وأنت مُتخم وبالك مشغول بالشرب وغيره، ثم تتعجب لماذا عبادتي غير مثمرة؟! أين هي تلك العبادة أولًا لنبحث عن ثمرتها؟! **فالله سبحانه وتعالى يخبرنا هُنا أنَّ العبادة المستمرة الصحيحة أنتجت أثرًا ملموسًا.**

ما هو أثر السجود ؟

{سِيمَاهُم فِى وُجُوهِهِم مِّن أَثَرِ ٱلسُّجُودِ}[الفتح ٢٩] كثرة السجود تركت سيمًا وعلامةً يُعرفون بها بين الناس، فما سيماهم هذه؟ قال بعض المفسرون: السِّيما إما في الدنيا أو في الآخرة.

إن كانت في الآخرة؛ فالمقصود بها النور التام يوم القيامة، يأتون يوم القيامة وفي وجوههم نور من أثر السجود، ورُوي: أنَّ الله حرَّم على النار أن تأكل أعضاء السجود[١٩]، فلهم نور لا ينطفئ من كثرة السجود الذي يبتغون به فضلًا من الله ورضوانًا، **فهذا سجود المخلص يكون نورًا يوم القيامة يُعْرَفون به**، فكما أنَّ الوضوء يكون علامة؛ فكذلك السجود يكون علامة يوم القيامة يُعرفون به. وأهل الإيمان يأتون أحيانًا بعلامات -كدم الشهيد برائحة المسك[٢٠]-، فمنها كثرة السجود تأتي يوم القيامة لها نورًا في الوجه.

وقال بعضهم: {سِيمَاهُم}[الفتح ٢٩] أي: **في الدنيا**، وأنَّ الخطاب لأهل الدنيا {تَرَىٰهُم رُّكَّعا سُجَّدا}[الفتح ٢٩]، ثم أكمل {سِيمَاهُم فِى وُجُوهِهِم}[الفتح ٢٩].

أما السِّيما في الوجه في الدنيا؛ اختلفوا قولين: فقال بعضهم **بأنَّ لها أثرًا حسيًا**، وبعضهم قال **بأنَّ لها أثرًا معنويًا**، إذًا السِّيما في الدنيا إما أثر حسي أو أثر معنوي.

الذين قالوا بأنها **أثر حسي**؛ قالوا: هي العلامة التي تظهر في الوجه من كثرة السجود، وهذه ليست دلالة على الإخلاص؛ ولكن تحدث من كثرة السجود. ورفضها بعض أهل العلم كالإمام مجاهد، وقال: تجد في رأس أحدهم مثل ركبة العين وهو فيه كذا وكذا، فهذا قول ورد عن بعض السلف.

وقيل: **الأثر الحسي** هو التراب أو الندى الذي يكون مصاحبًا للإنسان من كثرة سجوده، فكلما رأيته رأيت بعض التراب البسيط على وجهه في مكان السجود؛ لأنه دائمًا يسجد، ففي أي وقت رأيته ستجد غالبًا بقايا تراب على رأسه من السجود. ووُجِدَت بعض الآثار التي تقول بأنه يُكره إزالة هذا الأثر خصوصًا أثناء الصلاة. إذًا هذه أقوال من اختاروا أن الأثر في الدنيا حسي.

اختار الأغلب أنَّ **السِّيما هو الأثر في الدنيا ولكنه معنوي**.

ما هذا **الأثر المعنوي**؟ أقوال كثيرة، منها: الصُفرة في وجوههم من كثرة القيام، ومنها حسن السمت والهدي والذَّل في سَيرهم وفي كلامهم وفي أفعالهم، فتعرف أنَّ فلانًا هذا يصلي من أخلاقه وهذا هو الأثر

[١٩] [عن أبي هريرة:] تَأْكُلُ النَّارُ ابنَ آدمَ إلَّا أثرَ السُّجودِ حرَّمَ اللَّهُ على النَّارِ أن تَأكُلَ أثرَ السُّجودِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح ابن ماجه ٣٥٠٨ • صحيح • أخرجه مطولاً البخاري (٧٤٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٢)

[٢٠] [عن عبدالله بن ثعلبة:] زمِّلوهم بدمائِهم، فإنَّهُ ليسَ كلمٌ يُكلَمُ في اللَّهِ، إلاَّ أتى يومَ القيامةِ جرحُهُ يدمي لونُهُ لونُ دمٍ وريحُهُ ريحُ المسْكِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح النسائي ٣١٤٨ • صحيح

المعنوي؛ فالسجدة –العبادة– أحدثت تغييرًا بداخله، فعندما تنظر إليه تقول: هذا يصلي، كما قال بعض السلف (من كَثُرَت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار).

إذًا ملخص الكلام أن يكون هناك أثر ملموس للسجود، للصلاة، للعبادة، هذه هي العبادة المثمرة، التي آتت أُكلها.

كل هذا الوصف جاء لصحابة رسول الله ﷺ في التوراة: {أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ}[الفتح ٢٩]، وقيل بأنَّ وصف السجود {تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا}[الفتح ٢٩] أيضًا جاء في التوراة {ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ}[الفتح ٢٩].

إذًا البُشرَيات جاءت ليس فقط بالنبي ﷺ في الكتب السابقة، **ولكن بصحابته أيضًا**، لكن لماذا أتت البُشرَيات بالصحابة في الكتب السابقة؟ لأنَّ هذا الدين –كما قلنا– لن ينتصر إلا بوجود أعوان وصحابة ينتفضون لنصرة هذا الدين؛ فمن كمال وصف الدين أن تذكر بُشرَيات بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأيضًا بُوصف أصحابه صلى الله عليه وسلم.

{ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ}[الفتح ٢٩] وهذا قول أغلب المفسرين أنَّ المثل الأول جاء في التوراة، والمثل الثاني جاء في الإنجيل، وبعضهم قال: لا، بل تقول: { ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ} وتقف على الإنجيل، ثم تقول: {كَزَرْعٍ}، أي أنَّ وصف {تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا}[الفتح ٢٩] جاء في التوراة والإنجيل، ووصف {كَزَرْعٍ} أيضًا جاء في التوراة والإنجيل، وهذا قول الإمام مجاهد لكن رفضه أغلب المفسرين، وأنا أميل للقول الأول بالفعل، وهذا ما رجحه الإمام الطبري؛ أنَّ المثل الأول جاء في التوراة والمثل الثاني جاء في الإنجيل.

لماذا أتى المثل الأول في التوراة والثاني في الإنجيل؟

{كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ}[الفتح ٢٩] **لماذا أتى المثل الأول في التوراة والثاني في الإنجيل؟** اختصاص وصف التعبد والتنسُّك والتألُّه –هذا الوصف للصحابة– اختصاصه في التوراة له دلالة، واختصاص وصف التعاون والتناصر والتآزر في الإنجيل له دلالة أيضًا، لأن التوراة نزلت في اليهود وكانوا قساة القلوب فيهم غلظة، كانوا ماديين ينكرون كثيرًا من الغيب، لا يؤمنون إلا بالمادة، كانوا في حاجة إلى رقة العبادة وإلى يقين في الغيب عن طريق كثرة العبادة؛ لأن

المتعبد في الأساس يلتمس الأثر في الآخرة، فكان إصلاح اليهود مبني على أنهم يحتاجون إلى عبادة، فاليهود دائمًا متكاتفون ويريدون أن يفتعلوا الفتن {كُلَّمَآ أَوقَدُوا نَارا لِّلحَربِ أَطفَأَهَا ٱللَّهُ}[المائدة ٦٤]، فالمثل الذي أتى الله سبحانه وتعالى لهم به لأنهم يحتاجون إلى تعبُّد وتنسُّك وتألُّه، أما النصارى فمتفرقون وبينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، فكانوا يحتاجون إلى مَثَل التعاون والتناصُر والتآزُر، فجاء في كل كتاب ما يحتاجه أصحابه، وجُمِع الوصفان لصحابة رسول الله ﷺ، فالذين استطاعوا أن يقوموا بالوصفين هم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فكان لهم الكمال على كل حواريٍ أو على كل صحابيٍ لنبي سبق.

{ذَٰلِكَ مَثَلُهُم فِى ٱلتَّورَىٰةِ}[الفتح ٢٩] قلنا الغلظة والمادية تحتاج إلى كثرة العبادة، قسوة القلب وعدم رقة القلب من خصالهم {كَٱلحِجَارَةِ أَو أَشَدُّ قَسوَة}[البقرة ٧٤] كما وصفهم الله ﷻ في سورة البقرة -أعني بني إسرائيل-، هم يحتاجون إلى طول العبادة وطول الركوع والسجود؛ حتى ترق القلوب، وأن يرتبطوا بالدار الآخرة ويتركوا الدنيا قليلًا {وَلَتَجِدَنَّهُم أَحرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰة وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشرَكُوا}[البقرة ٩٦] بمعنى: أنهم يحرصون على الحياة أكثر من المشركين.

{وَمَثَلُهُم فِى ٱلإِنجِيلِ}[الفتح ٢٩] أي: ومَثَلُ صحابة النبي ﷺ مع النبي ﷺ؛ مَثَلُ هذه المعية في الإنجيل مثلٌ مختلف، {كَزَرعٍ}[الفتح ٢٩] قيل إنَّ المقصود هو النبي ﷺ؛ بداية الزرع بدأ وحده ﷺ ثم لحقه أصحابه، وقيل إنّ الزرع المقصود به النخل. {كَزَرعٍ}[الفتح ٢٩] بدأ وحده النبي ﷺ ولا تكتمل الدعوات إلا بالأتْباع؛ إلا بالشخص. {أَخرَجَ شَطأَهُ}[الفتح ٢٩] هكذا بدأت الدعوة تثمر، فكما أنَّ هناك عبادة مثمرة؛ فهناك أيضًا دعوة مثمرة بدأت تخرج الشطء، والشطء هو الأوراق والنباتات والفروع، فبدأت تكون هناك فروع أو نباتات متلاصقة حولها.

لذلك قيل إنَّ كلمة شطء قريبة من كلمة شاطئ، والشاطئ هو الجانب، فالشطء هو ما يخرج بجانب الزرع، يكبر حوله ويساعده أن ينمو مستقيمًا، فهذا يُسمَّى الشطء.

ما هي مراحل نمو الدعوة ؟

{كَزَرعٍ أَخرَجَ شَطأَهُ}[الفتح ٢٩] أي: وقف بجانبه عندما أخرج نتاجًا، لم يتركه وذهب، بل وقف معه. كزرعٍ كان في بدايته وحيدًا ضعيفًا لكن كان مثمرًا، فهذا الضعف لم يمنعه من الإنتاج والإثمار {أَخرَجَ شَطأَهُ}[الفتح ٢٩] وهذه هي **قصة نمو الدعوات**. {فَـَٔازَرَهُۥ}[الفتح ٢٩] مَن آزر مَن؟ الذي عليه

جمهور المفسرين؛ أنَّ الشطء آزر الزرع، وهناك قول اختاره أحد المفسرين اسمه سمير الحلبي أنَّ الزرع هو الذي قوَّى الشطء، يريد أن يقول أنَّ النبي ﷺ هو الذي قوَّى الصحابة رضي الله عنهم، يريد أن يفر من القول أنَّ الصحابة هم الذين قووا النبي، لكن ما المشكلة؟ ألم يقل الله عزَّ وجل {أَيَّدَكَ بِنَصرِهِۦ وَبِٱلمُؤمِنِينَ}[الأنفال ٦٢]، فما المشكلة أن نقول إنَّ الدعوة تقوى بوجود الصحابة؟! وأنا أميل إلى القول الأول أي أنَّ الشطء فاعل، أي أنَّ الصحابة قووا النبي ﷺ.

{فَـَٔازَرَهُۥ}[الفتح ٢٩] إذًا هذه الهاء تعود على الزرع؛ لأن هذه الهاء مفعول به، أي: فآزر الشطءُ الزرعَ، نحذف الزرع ونضع مكانها الهاء تصبح {فَـَٔازَرَهُۥ}، إذًا الشطء وقف بجانب الزرع.

{فَٱستَغلَظَ}[الفتح ٢٩]: إذًا لا يصح لمن يقيم دعوة أن ينتظر إلى أن يكبر ثم يبحث عن صحبة، لا! بل يكبران معًا، فالنبي صلى الله عليه وسلم من أول لحظة بدأ فيها الدعوة بدأ مع الصحابة، وحدث النمو المتكامل، والوحي ينزل، ويزداد النبي صلى الله عليه وسلم إيمانًا ويقينًا بالوحي، والصحابة معه، لذلك الترتيب بأن الزرع أولًا وحيدًا ضعيفًا، بعد ذلك ذكر سبحانه أنَّ هناك شطأً بجانبه لم يتركه، ثم ماذا حدث لهما معًا؟ {فَٱستَغلَظَ}، ولم يقل: فاستغلظوا، فكأنهم صاروا شيئًا واحدًا.

{فَٱستَغلَظَ}[الفتح ٢٩]: بعضهم قال: الألف والسين والتاء للتحول أو للقوة، يُقال: "استحجر الطين" يسمُّونها ألف وسين وتاء الاستحالة، والاستحالة ليست الممنوع؛ الاستحالة هي التحول؛ كما في الفقه يقولون: "هل هناك شيء اسمه استحالة النجاسة؟ هل إذا استحالت تصبح طاهرة؟"، فقالوا الألف والسين والتاء للتحول، أي: أصبح شيئًا مختلفًا بوجود الشطء، والنمو أصبح شكله مختلفًا فصارت هناك قوة بعد أن كان ضعيفًا.

{فَٱستَوَىٰ}[الفتح ٢٩] أي: أصبح قائمًا فاستوى على سوقه، يستطيع المواجهة، إذًا فالمواجهة قبل الاستغلاظ والاستواء خطر؛ تؤدي إلى الإهلاك.

إذًا هناك **مراحل لنمو الدعوات** وهذه المراحل متتالية، {فَـَٔازَرَهُۥ فَٱستَغلَظَ فَٱستَوَىٰ}[الفتح ٢٩] كلها عطفت بالفاء وليس بثم، وهذه هي الدعوات المستمرة وليست كدعوة الذي يقطع شوطًا ثم ينام، بل هي مستمرة، وانظر إلى حياة النبي ﷺ كل فترة تجد شيئًا جديدًا، استمرار في الدعوة.

{فَٱسۡتَغۡلَظَ}[الفتح ٢٩] أصبح غليظًا قويًا، وهذا وصف يناسب أشدَّاء على الكفار؛ أي لا يقبل الضيم. {فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ}[الفتح ٢٩] بلغ الكمال، فالاستواء من معانيه الكمال.

توضيح بمعلومة جانبية:

ومنها قوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ}[القصص١٤] من هذا؟ سيدنا موسى فقط؟ أم سيدنا موسى وسيدنا يوسف؟

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ}[يوسف ٢٢] خاصة **بسيدنا يوسُف**، {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ}[القصص ١٤] خاصة **بسيدنا موسى**؛ لأنه من أولي العزم من الرسل.

مرة أخرى نستكمل الحديث عن الدعوة:

{يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ}[الفتح ٢٩] أي أنَّ كل مَن يقيم على الدعوة يجد هذه الدعوة ناجحة مثمرة، أما الكفار فيغتاظون من نمو المؤمنين، وأكثر شيء يغيظ الكفار ثبات ونمو أهل الإيمان {لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ}[الفتح ٢٩]، وهذا مطلب بالمناسبة {وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ}[التوبة ١٢٠]؛ أي أنه لو كان هناك مكان تذهب إليه أو عمل تقوم به سيُغيظ الكفار؛ فأنت تنال عليه أجرًا، فهذا مطلب عند أهل الإيمان؛ إغاظة الكفار {وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ}[التوبة ١٢٠]. وهُنا {يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ} سألوا: ما الذي يغيظ به الكفار؟ قيل: **نمو أهل الإيمان**، وقيل: **كل ما سبق**، {رُّكَّعٗا سُجَّدٗا}[الفتح ٢٩] أي أنَّ عبادة المؤمنين تغيظ الكفار، {سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم}[الفتح ٢٩] حسن السمت والخلق يغيظ الكفار، والتآزر والتعاون يغيظ الكفار، ونموهم يغيظ الكفار، إذًا الإغاظة كانت {لِيَغِيظَ بِهِمُ}[الفتح ٢٩]، فالله عزَّ وجل يغيظ بالمؤمنين؛ أهل الإيمان هم قدر الله في الأرض الذي يحقق النصر، وهو سبحانه يغيظ بهم الكفار.

جمهور المفسرين على أنَّ الكفار هم المشركون، وقيل –وهو قول ضعيف–: الزراع، لكن قالوا بأنه لو كان المعنى الزراع فستكون هناك ركاكة في النص. صحيح أنَّ الكافر يأتي أحيانًا بمعنى الزارع، لكن معنى الآية هُنا سيكون: يعجب الزراع ليغيظ بهم الزراع! فستكون هناك ركاكة. والإمام مالك له استنباط مشهور هُنا في قوله تعالى{لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ}[الفتح ٢٩]، قال: كل من اغتاظ من صحابة النبي ﷺ نالته هذه الآية، أو بهذا يكون قد حقق وصفًا من أوصاف الكفر –بالطبع هو يُعَرِّضْ بالشيعة–.

ختام الآيه بعد هذا الشوط من المشاعر في صلح الحديبية :

ثم جاء في ختام الآية: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنهُم مَّغفِرَة وَأَجرًا عَظِيمَا}[الفتح ٢٩]، تخيل أنَّ آخر شيء يسمعونه وهم عائدون هو المغفرة والأجر العظيم! سمعوا فتحًا قريبًا وبُشرَيات ومغانم كثيرة، وسمعوا أشياء كثيرةً، لكن آخر شيء استقر في آذانهم وفي قلوبهم؛ هو ما يبحثون عنه؛ المغفرة والأجر العظيم فكانت هذه الآية هي البلسم والختام.

{مِنهُم}[الفتح ٢٩] "من" هُنا يُسمونها: "مِنْ بيان الجنس"، وليست "مِنْ التبعيضية"، ومنها قوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ}[الحج ٣٠] هل المقصود أنَّ هناك أوثانًا نتجنبها وأوثانًا لا نتجنبها؟! بالتأكيد لا، فـ"مِنْ" هُنا للبيان، يُسمونها: "مِنْ البيانية".

{وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنهُم}[الفتح ٢٩] **"مِنْ" هُنا "بيانية"** وليست "من التبعيضية".

بالطبع يتمسك الشيعة بلفظ الآية ويقولون: لا بل هي هُنا للتبعيض، وأنَّ الموعودين بالمغفرة هم –على أقوالهم– ستة أو خمسة عشر صحابي فقط. فتخيل سورة كاملة تمدح في الصحابة وتقول بأنهم عزَّروه ووقَّروه وبايعوه ورضي عنهم، ثم تأتي بحرف متشابه عندهم –الشيعة– تهدم به كل هذا! هذه هي أفهام الشيعة السقيمة التي تستغل المتشابهات لتحاول تضليل الناس، نسأل الله السلامة والعافية.

فكان هذا الختام: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنهُم مَّغفِرَة وَأَجرًا عَظِيمَا}[الفتح ٢٩] كان هذا هو الفتح الأعظم، حصول المغفرة والفتح العظيم.

أسأل الله عزَّ وجل أن يجعل هذه السورة فتحًا لنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا، وألا يحرمنا أبدًا من كتاب الله عزَّ وجل وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وجزاكم الله خيرًا.